



جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام
دراسة قرآنية

إعداد

محمد خالد حياذري

إشراف

أ. د. محسن الخالدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في أصول الدين (عام) بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2022م

وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام دراسة قرآنية

إعداد

محمد خالد حياذري

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2022/00/00م، وأجيزت.

أ. د. محسن الخالدي

المشرف الرئيسي

التوقيع

د. محمد عياش

الممتحن الخارجي

التوقيع

د. منتصر الأسمر

الممتحن الداخلي

التوقيع

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا:

إلى من بَلَغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ رسولنا الكريم ﷺ، وصحابته الكرام، رضوان الله عنهم، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

إلى من ربّاني صغيرًا، وتعهّداني كبيرًا؛ إلى والديّ، حفظهما الله تعالى

إلى رفيقة دربي؛ زوجتي، وأم أولادي، التي لطالما صبرت وضحت، ولم تكل، ولم تمل، في تهيئة الظروف المريحة للبحث، لها منّي كل الحب والاحترام، ورضا الله تعالى.

إلى أبنائي: فاطمة الزهراء، وعبد الرحمن، وخالد، وعائشة؛ فلذات كبدي، جعلهم الله تعالى من الصالحين، وأنبتهم نباتًا حسنًا.

إلى إخواني، وأخواتي، الذين أسأل الله أن يُحبّب لهم الإيمان، ويزيّنهم في قلوبهم، ويكره لهم الكفر، والفسوق، والعصيان، ويجعلهم من الراشدين.

إلى أصحابي وإخواني الذين أحبهم في الله، أخصّ منهم أهل النصح والتناصح في الله، وأهل القرآن أهل الله وخاصته، سخرهم الله لنصرة دينه والعمل لدعوته.

إلى العلماء، والدعاة العاملين، لدين الله تعالى.

إلى كل من علّمني حرفًا، وقَدّم لي نصحًا، وإرشادًا.

إلى أمة التوحيد.

أهدي إليكم بحثي هذا

الشكر والتقدير

أحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات والأرض، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد، وأشكره تعالى بأن يسّر لي إتمام هذه الدراسة، فأسأله تعالى أن يكتب لها القبول، وأن تكون في ميزان الحسنات ودرجات القربات، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

وقد علمنا رسول الله، ﷺ، أن نشكر ذوي الفضل من الناس، وقرن شكرنا إليهم، ﷺ، بشكر الله، إذ قال رسول الله، ﷺ: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله، عز وجل"¹ ومن هذا الباب، أتقدم بجزيل الشكر والتقدير والعرفان إلى أستاذي الفاضل الشيخ الأستاذ الدكتور محسن الخالدي، حفظه الله تعالى، وجزاه الله خير ما جزى شيخاً عن تلاميذه؛ فقد كان خير موجّه في الزلات والكبوات، وسنداً لي من قبل أن أكتب في الموضوع؛ إذ بفضل سعة علمه، وبريق فطنته، وصلت إلى أن شرفني الله بأن يكون مشرفاً لي في رسالتي، وقد منحني كثيراً من وقته وجهده، ولم يبخل علي بعلمه الوافر، بارك الله له فيه، وفي وقته، وذريته، ونفع به البلاد والعباد، فنعم المشرف هو، وقد تعلمنا منه صفات التواضع، وسعة الصدر، والحب، والألفة لطلابيه، فاللهم اجعله منارةً للعلم، ومنبراً للدعوة، ومحطاً للألفة والاجتماع.

كما أتقدم بوافر الشكر، وعظيم الامتنان، إلى الأستاذين الفاضلين اللذين تكرّما بقبول مناقشة الرسالة: فضيلة الدكتور: منتصر الأسمر، وفضيلة الدكتور: محمّد عيّاش.

فجزاهم الله عنّي خير الجزاء وفتح لهما أبواب رحمته.

¹ الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك؛ أبو عيسى (المتوفى: 279هـ): الجامع الكبير - سنن الترمذي تحقيق: بشار، عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1، 1996م، (403/3) كتاب: أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك حديث رقم: (1954) قال: "هذا حديث حسن صحيح". وأحمد؛ أبو عبد الله بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241): مسند أحمد تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، دار الحديث - القاهرة، ط1، 1995م، (322/13)، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة، رضي الله عنه، حديث رقم: (7939). قال المحققون: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير الربيع بن مسلم - وهو الجمحي - فمن رجال مسلم محمد بن زياد: هو القرشي الجمحي مولاهم".

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى قسم أصول الدين، وأساتذته الأجلّاء على بذلهم، وعطائهم المستمر؛
فقد عشتُ في أروقة هذا الصرح العظيم لحظات هي من أجمل أيامي، فالله أسأل أن ينير هذه
الأروقة بالعلم الربّاني، ويزيل ظلمات الجهل من مجتمعنا.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام دراسة قرآنية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: محمد خالد حياصري

التوقيع:

التاريخ: 2022/07/02

فهرس المحتويات

ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
و	الإقرار
ز	فهرس المحتويات
ي	فهرس الملاحق
ك	الملخص
1	مقدمة
8	الفصل التمهيدي: التعريف بمفردات عنوان الرسالة
9	المبحث الأول: مفهوم النبي في اللغة والاصطلاح
9	المطلب الأول: النبي في اللغة
10	المطلب الثاني: النبي في الاصطلاح
10	المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة
11	المبحث الثاني: مفهوم الأمة في اللغة والاصطلاح
11	المطلب الأول: الأمة في اللغة
11	المطلب الثاني: الأمة في الاصطلاح
13	المبحث الرابع: مفهوم الوحدة، ودلالة ورودها في السياق القرآني
13	المطلب الأول: مفهوم الوحدة لغةً واصطلاحاً
15	المطلب الثاني: الوحدة في السياق القرآني
21	المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة
25	الفصل الثاني: فضل الوحدة وذم الفرقة في دعوة الأنبياء عليهم السلام
25	المبحث الأول: فضل الوحدة
25	المطلب الأول: وحدة الأمة إرادة ربانية
34	المطلب الثاني: الوحدة توحيداً للكلمة ورص الصفوف
39	المطلب الثالث: رحمة الله لأهل الوحدة في الدين
45	المبحث الثاني: ذم الفرقة
46	المطلب الأول: الفرقة خزي في الدنيا، وندامة في الآخرة
47	المطلب الثاني: الفرقة ابتعاد عن سبيل الله، وتفتيت للأمة
49	المطلب الثالث: براءة النبي محمد ﷺ، من الذين فرقوا دينهم
55	المطلب الرابع: الفرقة في الدين منافية لفطرة الله التي فطر الناس عليها
59	الفصل الثالث: دعوة الأنبياء عليهم السلام أقوامهم إلى عقيدة واحدة

المبحث الأول: وحدة الدين، ووحدة الخالق وحاكميته، في دعوة الأنبياء عليهم السلام، أقوامهم.....	59
المطلب الأول: وحدة الدين في دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم.....	59
المطلب الثاني: الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة.....	63
المطلب الثالث: دعوة الأنبياء عليهم السلام لحاكمية الله وحده.....	67
المبحث الثاني: الإيمان برسول الله جميعاً، وباليوم الآخر في دعوة الأنبياء عليهم السلام أقوامهم.....	72
المطلب الأول: الإيمان بوحدة الرسل، ووجوب طاعتهم، والتحذير من عصيانهم.....	72
المطلب الثاني: الإيمان باليوم الآخر، واستخدام أسلوب الوعد والوعيد في دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم.....	76
المبحث الثالث: وحدة الغاية والهدف في دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم.....	80
المطلب الثاني: وحدة إصلاح دار المعاش.....	86
المطلب الثالث: وحدة الدعوة إلى مكارم الأخلاق.....	90
الفصل الرابع: ملامح الوحدة في دعوة النبي محمد ﷺ.....	95
المبحث الأول: وحدة العقيدة في دعوة النبي محمد ﷺ.....	95
المطلب الأول: وحدة الإله في دعوة النبي محمد، ﷺ.....	95
المطلب الثاني: وحدة الدين في دعوة النبي محمد ﷺ.....	99
المبحث الثاني: وحدة الشريعة في دعوة النبي محمد ﷺ.....	102
المطلب الأول: الوحدة في خطاب الله تعالى لأمة محمد، ﷺ، بالتزام الشريعة.....	102
المطلب الثاني: وحدة أداء أمهات العبادات في دعوة النبي محمد ﷺ.....	106
المطلب الثالث: وحدة التحاكم إلى الله والرسول في دعوة النبي محمد ﷺ.....	122
المبحث الثالث: الوحدة المتمثلة في ذات النبي محمد ﷺ.....	128
المطلب الأول: الوحدة المتمثلة في وجوب الإيمان، والاقتداء به عليه السلام.....	128
المطلب الثاني: الوحدة المتمثلة في حب النبي محمد ﷺ لأمته.....	133
المطلب الثالث: حرصه ﷺ على الأمة وبكائه لأجلها.....	134
الفصل الخامس: دعوى توحيد الأديان (الديانة الإبراهيمية نموذجاً).....	136
المبحث الأول: نشأة فكرة دعوى توحيد الأديان (الديانة الإبراهيمية).....	136
المطلب الأول: فكرة توحيد الأديان.....	136
المطلب الثاني: نشأة الدعوة إلى الديانة الإبراهيمية.....	138
المبحث الثاني: عقيدة اليهود والنصارى، وكيفية التعامل معهم في ضوء القرآن الكريم.....	142
المطلب الأول: حكم عقيدة اليهود والنصارى في ضوء القرآن الكريم.....	142
المطلب الثاني: كيفية التعامل معهم في ضوء القرآن الكريم.....	144
المبحث الثالث: الموقف من الديانة الإبراهيمية.....	147
المطلب الأول: الثبات والوحدة في مواجهة الأفكار الهدامة.....	147

المطلب الثاني: بيان بطلان وفساد الدعوة الإبراهيمية.....	149
الخاتمة.....	155
قائمة المصادر والمراجع.....	158
الملاحق.....	175
Abstract.....	B

فهرس الملاحق

الملحق (أ): الجداول 175

وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام دراسة قرآنية

إعداد

محمد خالد حياذري

إشراف

أ. د. محسن الخالدي

الملخص

تتبع الباحث الآيات الواردة في موضوع طريق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، في توحيد الأمة، ثم رتبها وفق منهجية التفسير الموضوعي، مع بيان الفهم الصحيح لها، بناءً على أقوال المفسرين والعلماء، ومستعيناً في ذلك بالمنهج الاستقرائي، والتحليلي، والنقدي.

اشتملت الرسالة على مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة؛ فجاء الفصل الأول عن مفهوم الوحدة والتعريف بمفردات الرسالة، حيث تعرّض الباحث لكلّ من مادة "نبي" و"أمة"، وتوسع في مادة "وحد" في القرآن الكريم، وعرّفها لغةً واصطلاحاً، وأظهر الرابط بين التعريفين، مع ذكر الألفاظ ذات الصلة بلفظة "وحد"، وتعريفها لغةً واصطلاحاً وبيان الرابط بين كلّ منهما، وأفرد الفصل الثاني لبيان فضل الوحدة وضمّ الفرقة في دعوة أنبياء الله تعالى، وفي الفصل الثالث تمحور الحديث حول دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم إلى عقيدة واحدة؛ ببيان أنّ دينها واحدٌ، والخالق واحدٌ، والحاكميّة لله الواحد؛ فقد دعوا أقوامهم إلى الإيمان بأركان الإيمان العامة، وأساسها الإيمان برسول الله جميعاً، وباليوم الآخر، مع إبراز وحدة همّ الأنبياء في إيصال الرسالة، وهداية الخلق، وجاء الفصل الرابع ببيان ملامح الوحدة في دعوة النبي محمد ﷺ.

وفي الختام، خلصت الدراسة إلى أن وحدة الأمة هي إرادة الله تعالى، وهي أساس في دعوة أنبياء الله تعالى، عليهم السلام، جميعاً، ويجب على المسلمين، جميعاً، السعي لتحقيق هذه الفريضة.

الكلمات المفتاحية: الوحدة، ذم الفرقة، توحيد الاديان، الدعوة الإبراهيمية، الأمة.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا وقائدنا وعظيمنا محمد رسول الله، ﷺ، حبيب ربنا، جلّ وعلا، الذي آخى بين المسلمين عامةً، وبين الأوس والخزرج خاصةً، ثم أما بعد:

فإن وحدة الأمة الإسلامية هي اللبنة الأساسية في تكوّن المجتمع المسلم المؤمن بادئ بدء، مروراً بنهضة دين الله، وانتهاءً بظهوره على الدين كله، وهذه السنّة الكونية حقيقٌ بها أن تُحَفَظَ، وحرِيٌّ بها أن ترسخ في القلوب؛ لأنها ساريةٌ ماضيةٌ من لدن آدم عليه السلام، إلى خاتم النبيين، وأفضل المرسلين؛ سيدنا محمد ﷺ. ولما كانت دراسات التفسير الموضوعي محاكيةً للواقع الذي يعيشه الباحث، ما انفك موضوع وحدة الأمة، ودعوة الأنبياء في الوصول إليها، يطرق خاطره، حتى شرح الله صدره، ولله الحمد، فنضجت الخاطرة، وغدت فكرة يانعة، لتكون موضوع الكتابة في هذه الرسالة؛ ودعوة الأنبياء كانت وما زالت، وستبقى هي الدعوة المرضية من الله، تبارك وتعالى، فقد حفظ الله أنبياءه، وعصمهم، وهداهم للدعوة إلى طريق الوحدة؛ فقد سيّداهم، ورفع أقوامهم بفضل دعوتهم، وما جاءوا به من الدين القويم، والفضل العظيم، وكلّهم بالرعاية الربانية المغشية بالرحمة المحفوفة بالملائكة، وقد شُرّف الأنبياء بأن الله ذكرهم فيمن عنده، وأُخذ ذكرهم لمن جاء بعدهم؛ ليقنّوا بأخلاقهم، ويرشدوا بهديهم، امتثالاً لأمر خالق الكون ﴿فِيهِدْنَاهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: 90] وقد جاء الأمر بالافتداء بعد أن زكاهم الله، جلّ في علاه، بأن أخبرنا أن أولئك الذين هدى الله.

فاقتداء دعوتهم، وامتثالها طريقاً في توحيد الأمة عبادةً مقصودةً لذاتها، ومقصودةً لغيرها؛ فهي غايةٌ بذاتها؛ إذ عليها نُؤَجَّر، وهي وسيلةٌ لغيرها؛ فوحدة الأمة سبيل إلى نهضتها، وبهذا تصل الأمة إلى أفضل طريقٍ لمن ابتغى وحدة أمته، وسعى لها ذلك؛ لأن أحوج ما نحتاج إليه اليوم هو لُحمة الصف، واتحاد الكلمة.

ومن المقرر في كتاب ربنا، عز وجل، أن التنازع، الذي هو مقدمة الفرقة المضادة للوحدة، إنما هو محطة سابقة مفضية إلى نتيجة حتمية هي الفشل، وذهاب ريح المسلمين، وعلى ما يبدو أن أعداء هذا الدين قد أدركوا هذه الحقيقة، وعملوا بمقتضاها، حتى بات حال المسلمين يقلق كل قريب، ولا يخفى على بعيد.

إن موضوع الوحدة الإسلامية يجب أن يكون متقدماً متوهجاً في قلب كل مسلم، وأن انعدامها مقصّ لمضاجع الصادقين من أبناء هذا الدين الحنيف، فلا تنام عين، ولا يهدأ بال، حتى تعود الأمة متوحدة متماسكة قوية متينة، ومن ثم يتحقق الوعد الذي وثقت به الأمة على أنه حق، وأنه المرحلة المقبلة لا محالة. وتتبع سبيل أنبياء الله، عليهم السلام، جميعاً في دعوة التوحيد، والأخذ بها، وهذا من مقدمات إظهار الإسلام على الدين كله.

وهذا النهج قد سار عليه، ﷺ، في دعوته؛ فعندما تشاحن رجل من الأنصار مع نظيره من المهاجرين، دعا الأنصاري الأنصار لنصرته وكذا فعل المهاجري... وقد كانت ردة فعل المصطفى، ﷺ، منسجمة مع فضاغة الموقف، وهول الفرقة وخطرهما، وربما جالت لغة العرب جميعها مصادرها، ومفرداتها، وأمرها، ونهيها، في ذهنه الشريف، ﷺ، فما كان منه، ﷺ، إلا أن اختار من الصيغ صيغة الأمر، ومن المفردات كلمة معبرة، في طيتها تدور محاور همّه، ﷺ، بالحث على وحدة الأمة ملبساً موانعها ثوب الجاهلية العمياء المنتنة، فقال الرسول الأكرم محمد، ﷺ، في نفي الفرقة، وتثبيت الوحدة "دعوها فإنها منتنة"¹.

ومن هذه الأبواب مجتمعة، التي انبثقت من قول ربنا، جل وعلا، في قرآننا الكريم ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103] ارتأى الباحث أن يكون موضوع هذه الرسالة ذا علاقة وطيدة

¹ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (المتوفى 256هـ): صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة - دمشق، ط5، 1414هـ-1993م، كتاب التفسير باب: قوله: {سواء عليهم أستمغرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين}، رقم: (4622)، (1861/4). ونص الحديث: عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: "كنا في غزاة -قال سفيان مرة: في جيش- فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله، ﷺ، فقال: (ما بال دعوى جاهلية). قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: (دعوها فإنها منتنة)".

بالوحدة الإسلامية، وسيرة الأنبياء عليهم السلام في توحيد الأمة، فكان الاختيار على وسم لها هو: وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام -دراسة قرآنية، سائلًا الله أن تكون رسالتي هذه وموضوعها سببًا في أن يعي خاصة الشاب المسلم الصاعد الغيور على دينه المتعطش قلبه للإسلام الحنيف معاني الوحدة، فيكون بانطلاقه إلى العالم مع تبني فكر الوحدة الإسلامية قد أحسن أيما إحسانٍ في فهم دينه، وإعطاء صورة مشرقة بتمام التقريب بين أفراد المجتمع المسلم عامةً، ونظرائه الشباب الآخرين خاصةً، ونبذ التنازع، أو الاختلاف، وذلك بالاحتكام إلى القرآن.

الدراسات السابقة في الموضوع:

إن الجهود التي قام بها الكتاب الإسلاميون الأفاضل من باحثين وعلماء في هذا المجال جهودٌ مشكورةٌ، سائلين الله أن تكون في ميزان حسناتهم؛ فهذا الموضوع ليس بدعًا من المواضيع، بل له مكملاتٌ، ومتمماتٌ، وينبغي في كل عهدٍ أن يكتب فيه لأهميته البالغة. وآمل أن تتوفّر الجدة، في هذا البحث المتواضع، المتمثلة في الانطلاق من الواقع المعاش للتخليق، وملامسة معاني الوحدة في القرآن الكريم، والاستفادة منها، ومن ثم الهبوط من جديدٍ إلى الواقع لإسقاطها عليه، وفيما يأتي لمحةٌ عما كتب فيه:

1. كتاب الأمة الواحدة، للدكتور سلمان العودة، سنة 2007 الذي بث فيه روح الأمل بأن الأمة لن تموت، وأن الأمة منصورّة، بإذن الله تعالى، ثم تحدث عن مبدأ الأخوة، وعما يربطهم من حقوقٍ معرّجًا على حقيقة التدين، لا على شكله المظهري، وأن الأخوة جوهرٌ بالأساس، ثم أصلٌ لفكرة حتمية الاختلاف، الذي لا ينبغي أن يؤثر في الأخوة، وإلا فالطاقات ستذهب هدرًا أدراج الرياح.

2. كتاب الطريق إلى وحدة الأمة، لعبد الرحمن عبد الخالق، سنة 1973، تكلم فيه عن المرجعيات العامة التي ينبغي للمسلم العودة إليها، والتي إذا التزم بها كانت سبيلًا إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، ودرجتها بالأهمية الآتية: القرآن، ثم السنة، ودعا إلى وضع كلّ منهما في موضعه الصحيح، وعلى الصعيد الخاص، دعا إلى الإخلاص، والبعد عن الهوى، والبغي، والحسد.

3. ثمار الجنة في التعليق على كتاب وحدة الأمة، للشيخ عبد الرحمن صديق، ولأبي زيدان العربي الكتبي، نشر في سنة 2018، وسرد في المؤلف أحاديث عن فضل الوحدة، والاجتماع، والجماعة، وبالمقابل، ذكر أحاديث ذم الفرقة، والوعيد الشديد، لمن يفارق جماعة المسلمين، وحطّ من شأن التعصب، ثم تبخّر في ذكر أبواب حديثية عدة في الخلافة، والإمامة، والبطانة، والأئمة من قريش، وختم في أبواب يخاطب فيها الرعية، والطاعة، برواية أحاديث كلّ منها، وذكر أحاديث البيعة، وما يتفرع عنها.
4. كتاب الوحدة، للشيخ عبد العزيز بن محمد الزبيري، نشر في سنة 2013، وطأ الكاتب فيه الكلام بأن الوحدة فريضة شرعية، وضرورة بشرية، فأبرز الحاجة الاجتماعية في وجود ما يتحدثون عليه، وبين أن هذه الوحدة إنما هي الوحدة الدينية، ثم عرج إلى العبادات؛ كالصلاة، والحج؛ لتبيين لمسات الوحدة فيها.
5. كتاب الوحدة الإسلامية، لمحمد أبو زهرة؛ من منشورات دار العربي ببيروت ولم يتوفر في النسخة سنة الإصدار، وفيه قعد أن الوحدة أصل، ومقصّد من مقاصد ديننا الحنيف، ثم عرج إلى الكلام عن تكوين الوحدة في عهد النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين، ومكانة الخلافة في الإسلام، ثم شرع في أسباب الفرقة بعد الاجتماع، وماهية أهداف المفرقين، وختم في إرساء رؤية لوحدة ممكنة في واقعه.
- ما يميّز هذه الدراسة: من الملاحظ أنّ الدراسات السابقة تناولت جوانب من موضوع وحدة الأمة الإسلامية؛ فمنها ما طالب بوحدة الأمة، ومنها ما أسهب في ملامح الوحدة التي ينبغي أن تكون عليها، ومنها ما اعتنى بالوحدة دراسةً حديثيةً مبوّبةً على التراجم، ومنها ما كان مقالاتٍ بحسب النفحات الربانية، ومنها ما أبرز الوحدة في الأركان؛ كالحج، ورمضان، وقد تميّزت هذه الدراسة عمّا سبق أنّها ارتكزت على القرآن الكريم منبعاً أصيلاً؛ فهي دراسة قرآنية، انطلقت من القرآن استقراءً، واستشهاداً، وتحليلاً، وما ورد فيها من أحاديث إنّما كان من باب الشرح والتفسير لما جاء في القرآن الكريم، وتخصّصت هذه الدراسة؛ في وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام وبأنّها محاكية للواقع المعاش في ظل دعاوى باطلة من حكام ودول عظمى الى توحيد الأديان وتبيين خطره على وحدة الأمة.

أهمية الموضوع

1. الوحدة أصلٌ ينبني عليه كثيرٌ من أمور الدين.
2. إن الأخذ بمبدأ وحدة الأمة، والعمل عليه، والحث إليه، يفضي الى قوة الجنان، وحسن العمل بالأركان، ونيل رضا الرحمن، وحب المصطفى العدنان ﷺ.
3. تكمن أهمية الموضوع في أنّ الوحدة هي الدواء الشافي، والإكسير النافع، لواقع الأمة المعاش، وهي أحد أولويات الدعاة والعلماء بأن يعتنوا بها.
4. بما أن الأمور تعرف بأضدادها، فإن انعدام الوحدة، والعياذ بالله، لهو داءٌ خطره جسيم.

أسباب اختيار الموضوع

1. الرغبة الشديدة في توحيد صفوف المسلمين، وأن أكون جذعاً، في تكوين هذا الصرح العظيم، وجسراً لغيري من أبناء الإسلام لتحصيل هذا الشرف.
2. انطلاقاً من الواقع المعاش الذي تفرقت فيه الأمة، وتمزقت بتبعيتها لغيرها، وابتعادها عن منهج ربها؛ فالباحث ينطلق من واقعه؛ ليداوي جراح الأمة.
3. تنبيه الغافل من شريحة عوام المسلمين على أهمية الموضوع، وإيقاظ من سها عن فرضية هذا الموضوع.
4. الطمع في الأجر الكبير، والثواب الجزيل، من الله تعالى في جعل هذه الرسالة سبباً في لحمة الصف، ووحدة الأمة ولتكون بمثابة تحصين من الدعوات الهدامة كالدعوة الإبراهيمية.
5. التماس رؤية أنبياء الله من القرآن الكريم في الوصول إلى الوحدة استنهاضاً للأمة، واستيقاظاً لريحها، وريادتها، وشامتها، بين الأمم على الصعيد العام، ونجاح أفرادها وفلاحهم على الصعيد الخاص.

مشكلة البحث

مشكلة الدراسة تبحث في وحدة الأمة من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام، وذلك بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما دواعي الفرقة وأسباب الخلاف؟
2. إلى أي مدى ذم الله الفرقة، وبين فضل الوحدة، على لسان أنبيائه، عليهم السلام؟
3. كيفية علاج الأنبياء، عليهم السلام، الفرقة وصولاً إلى وحدة الصف المسلم؟
4. ما آثار الوحدة المرجوة من أمة الإسلام؟
5. ما ملامح الوحدة في دعوة محمد ﷺ على وجه الخصوص؟
6. كيف حرص النبي محمد ﷺ على وحدة أُمَّته؟
7. كيف نجابه الدعاوى الباطلة، مثل الدعوة الإبراهيمية نموذجاً عن دعاوى توحيد الأديان؟

أهداف البحث

1. بيان أسباب الفرقة، ودواعي الخلاف.
2. بيان فضل الوحدة، وذم الفرقة، على لسان الأنبياء، عليهم السلام.
3. بيان طريقة الأنبياء عليهم السلام في جمع الكلمة.
4. بيان آثار الوحدة، ولامح وجودها، في أمة الإسلام، على وجه العموم.
5. بيان ملامح الوحدة في دعوة محمد ﷺ على وجه الخصوص.
6. بيان كيفية حرص النبي ﷺ على وحدة أُمَّته.
7. بيان كيفية مواجهة دواعي الفرقة سيما إذا كانت عالمية وتحظى باحتضان دولي.

منهج البحث

إعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي النقدي حيث:

1. المنهج الاستقرائي: استقرأ الباحث الآيات الكريمات التي هي بمنزلة المفاتيح للأفكار، وعناوين الفصول، والمباحث، مُستفيداً ممّن سبق من أهل التفسير.
2. المنهج التحليلي: نظر الباحث في أقوال أهل التفسير، واعتمد ترجيحات العلماء في فهم الآيات الكريمات.
3. المنهج النقدي: عرض الباحث أقوال المفسرين في كل آية ذات علاقة بالموضوع، مناقشاً إياها متوصلاً إلى فهم معاني آيات القرآن الكريم فهماً صحيحاً.
4. ذكر الأحاديث الصحيحة الواردة التي لها علاقة مباشرة بالموضوع، والمنطوية تحت الآيات الكريمات؛ لتكون مبيّنة، شارحة، ومعاضدة، لمحل الاستشهاد القرآني، وخزج الأحاديث التي ليست في الصحيحين.
5. ذكر تراجم الأعلام المغمورين.
6. بيان غريب الألفاظ، والمصطلحات، وعزوها إلى مظانها من كتب اللغة.

الفصل التمهيدي

التعريف بمفردات عنوان الرسالة

لما كان لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولم يحط بعلمه جميعًا إنسانٌ غير نبي، والعلم به، عند العرب، كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، وقد دلّ القرآن على أنّه لا يوجد في كتاب الله شيء ليس في لسان العرب¹، ولذا، كان لزامًا على الباحث أن يعطي كل معنى في أصل الدراسة حقّه ومستحقّه، خاصةً مفردات العنوان؛ لأنها الأعمدة التي يتكئ عليها البحث، ومن تمام حق مفردات العنوان، التزام الباحث أن يعيد هذه المفردات إلى أصلها في اللغة، ابتداءً، ومن ثمّ الولوج إلى المعنى الاصطلاحي، وكان ذلك ذا أهميةٍ بمكان؛ إذ ربُّنا جلّ في علاه، علّم آدم الأسماء كلها في بداية الاستخلاف في الأرض، والتعريف بدلالات العنوان ومعانيه، يهيئ للقارئ ظلًا معرفيًا يتيح له حمل ما وراء هذه المفاهيم والتفاصيل، وعليه، فقد نحا الباحث إلى تقديم معجمٍ في معاني اللغة كي يجد ضالته التي ينشدها من تأصيل هذه المادة المتواضعة.

¹ ينظر: الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبى القرشي المكي (المتوفى: 204هـ): الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي - مصر، ط1، (1/42).

المبحث الأول: مفهوم النبي في اللغة والاصطلاح

لَمَّا كَانَ المضاف يعرف، تفصيلاً، بما يضاف إليه فإنه ارتفع شأن الدعوة، لأنها تضاف إلى الأنبياء، عليهم السلام، جميعاً، ولأننا في غمار بحث علمي، فلا بد أن نطرق مفهوم النبي في اللغة، وكذا في الاصطلاح، ومع كون لفظة النبي مشتهرة، إلا أن هناك إضافات لغوية لطيفة، وهو ما سيعرضه الباحث في المطالب الآتية.

المطلب الأول: النبي في اللغة

لقد فصل أصحاب اللغة في معنى النبي في اللغة، وهو المشهور بين الناس، والمتبادر إلى الذهن، وفرّق بين ما هو مهموز، وغير مهموز؛ ففيه معنى الإخبار؛ فالنبي بعدم الهمز (التسهيل) مَكِّيَّةٌ؛ فعِلٌّ بمعنى مفعِل، وهو المخبر عن الله تعالى، فإن الله تعالى أخبره بتوحيده، وأطلعه على غيبه وأعلمه أنه نبيه. والنبي، بالهمز، من النبأ؛ أي الخبر؛ لأنه أنبأ عن الله أي أخبرونبأت الرجل، ونبأني، إذا أخبرته وأخبرك، وأما الإضافات غير المشتهرة عند الناس هي أن في طَيِّات مفردة النبوة معنى الارتفاع، فنباً ونبوء: ارتفع، والنباوة هي الارتفاع عن الأرض؛ أي أنه أشرف على سائر الخلق، فأصله غير الهمز في هذا المعنى، وما نبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر، وفي معنى النبي: الطريق. والأنبياء: طرق الهدى. ونبأت من أرض إلى أرض أخرى، إذا خرجت منها إليها.¹

¹ الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهرى، (المتوفى: 370هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، (349/15).

المطلب الثاني: النبي في الاصطلاح

أما في الاصطلاح فكان مورد الظماً عند الراغب ثانياً، إذ يقول، رحمه الله تعالى: "والنبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة عنهم في أمر معادهم ومعاشهم، والنبي لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكية، وهو يصح أن يكون فعلاً بمعنى فاعل لقوله تعالى: ﴿نَبِيٍّ عَبْدِي﴾ [الحجر: 49]¹.

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة

لما اجتمعت لفظة الرسول، ولفظة النبي، في سياقٍ واحدٍ، كان لا بد أن يكون هناك فرقٌ بينهما؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: 52] الرسول هو النبي المرسل، والنبي: المحدث الذي لم يرسل.²

وأصل الرسل: الانبعاث على التؤدة، وهي ناقة رسل: أي سهلة في المسير، وإبل مراسيل: تتبعث انبعاثاً فيه سهولة، ومنه: الرسول المبعوث، ومنه، يتصور الرفق؛ فقولك: على رسلك، لما أمرت بالرفق، وتارة، الانبعاث، فاشتقاق الرسول منه، والرسول يقال للقول المتحمل، ولمتحمل القول والرسالة، والرسول تطلق للكثرة والجمع ويقال للواحد، ويجمع الرسول برسل، ورسل الله أحياناً يراد بها الملائكة، وأحياناً يراد بها الأنبياء.³

¹ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ): المفردات في غريب القرآن تحقيق: صفوان عدنان الداود الشامية - دمشق، بيروت، ط1، 1412هـ، (ص: 789).

² الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (ت 207هـ): معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشليبي، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، ط1، (229/2).

³ ينظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 352).

المبحث الثاني: مفهوم الأمة في اللغة والاصطلاح

إن موضوع الأمة في الدراسات القرآنية قد نال حظاً وافراً ليس فقط لدلالاته اللغوية والاصطلاحية وماهية المعاني في وحدوية الصف المسلم؛ فقد بات واجباً كفائياً على أصحاب الأقلام الطاهرة التي انبرت دفاعاً عن دين الله الحنيف في مقابل الآثمين من قطاعان مرتزقة المستشرقين، الذين كعادتهم وعادة أسيادهم يحاولون الطعن في مفهوم الأمة وتلبس المعاني الاجتماعية الحادثة للأمم وهيئاتها؛ ليفتنوها ويقطعوا أواصرها، ويتم سلخ أفرادها عن الباب الشامل الذي سيكون سبباً لشفاة نبيهم لهم، صلوات الله وسلامه على من اختبأ دعوته المجابة لأحوج ما تحتاجه إليه الأمة، فيقول صريحاً: أمّتي، أمّتي. وفي هذا المبحث تأصيل لغوي للمفردة، بإذن الله ومشيتته.

المطلب الأول: الأمة في اللغة

"والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييراً أو اختياراً"¹.

المطلب الثاني: الأمة في الاصطلاح

وفي القرآن الكريم، جاءت كلمة أمة في معانٍ من بديع كلام ربنا، جلّ وعلا، في ظلّ غفلةٍ، أو تغافلٍ، عن أفهام أولئك الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ابتغاء إرضاء شياطينهم من الإنس والجن فهم الخاسرون، وأما المعاني فهي في غاية الوضوح، مثالها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ﴾ [البقرة: 213] أي: نوعاً واحداً، وفي طريق واحد في الكفر والزيغ.

ثانياً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ﴾ [هود: 118] أي: في الإيمان.

¹ الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 86).

ثالثًا: قوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104] أي: جماعة يتخيرون العلم، والعمل

الصالح، يكونون أسوة لغيرهم.

رابعًا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22] أي: على دين مجتمع.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45] أي: بعد نسيان.

سادسًا: قوله، جل وعلا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120] أي: قائمًا في عبادة الله مقام جماعة كاملة.

سابعًا: قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113] أي: جماعة¹.

¹ المصدر نفسه والصفحة نفسها.

المبحث الرابع: مفهوم الوحدة، ودلالة ورودها في السياق القرآني

إن الركن الأساس، وعمود الدراسة، هو الوحدة، وهو أم الدراسة التي تنثر باقي المعاني، وعليه، فإنّ على الباحث بسط الطّرح فيه لزماً.

المطلب الأول: مفهوم الوحدة لغةً واصطلاحاً

أولاً: الوحدة في اللغة

لا بد لنا قبل الشروع في وحدة الأمة، وأهميتها، وأسبابها، وما يتفرع من ذلك من فصول ومباحث، أن نوغل في بحثنا برفق، ومن الرفق أن نتعرف إلى معنى الوحدة لغةً واصطلاحاً، لعلنا نستفيد من معنى الكلمة في طرحنا لأمرٍ عمليةٍ مستقبليةٍ، وعليه، فقد عاد الباحث لكتّابي الصحاح للجوهري، ومجمل اللغة لابن فارس، للتعرف إلى معنى الوحدة لغةً.

أما كتاب الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية فقد أورد المعنى الآتي: [وحد] الوَحْدَةُ: الانفراد. يقال: رأيتُه وحده. إذ هو منصوبٌ على الظرفية عند الكوفيين، وعلى المصدرية في جميع الأحوال عند البصريين¹.

وأما مجمل اللغة لابن فارس فقد ذكر المعنى في باب الواو والحاء وما يثلاثهما بالمعنى السابق وأضاف: ذكر الانفراد، وأردف، هذا واحد قومه، إذا لم يكن فيهم مثيلٌ له. يقال: يا واحد العرب الذي ما في الأناس له نظيرٌ².

فملخص ما ذكرناه أنّ المعنى يدور حول الانفراد.

¹ ينظر: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: 393هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت ط4، 1407هـ-1987م، (547/2).

² ينظر: ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ): (ص: 918).

ثانيًا: الوحدة اصطلاحًا

بعدما عقلنا معنى الوحدة لغَةً، لا بد لنا من تعريفها اصطلاحًا، ولذلك نرجع إلى كتاب الكليات لنجد ما يأتي:

الوحدة: كون الشيء بحيث لا يمكن انقسامه، وهي تكون متنوعة أنواعًا، جاء الاصطلاح بكل نوعٍ منها باسمٍ للتسهيل في التعبير، فتكون الوحدة في النوع مماثلة، ووحدة الجنس تسمى مشاكلة، ولما تكون الوحدة في الكيف فعندها تسمى مشابهة، ومساواة في الكم، وونطلق عليها محاذاةً وموازة في الوضع، وفي الأطراف مطابقة، وفي النسبة مناسبة.

وتقال فيراد بها انعدام التجزئة أو الانقسام؛ وكثيرا ما يطلق الواحد بهذا المعنى وقد تطلق بإزاء التعدد والكثرة، ويكثر إطلاق الأحد والفرد في سياق هذا المعنى، ووحدة الباري، وحدة ذاتية.¹

وفي واقع الأمر، التعريف أعلاه ليس مباشرًا في موضوع وحدة الأمة الإسلامية، إنما هو في اصطلاحات بمضافاتٍ شتى، وهو مفيد إلا أنه لا ينشد ضالة البحث بشكل مباشر، لذلك، كان من اللازم مجددًا إضاءة مصباح العلم تارة أخرى لتكون الوحدة عند القاضي نكري: "الوحدة: وكذا الكثرة بديهيتان، بمثل ما قالوا في الوجود، فإن تصور الوحدة جزءً من تصور وحدتي المتصورة بالضرورة، وكذلك، يعلم كل واحدٍ أنه واحدٌ بلا كسبٍ منه، وقس عليها الكثرة، ولكنهم عرفوها توضيحًا بأنها كون الشيء بحيث لا ينقسم من حيث إنه واحد، والكثرة بأنها كون الشيء بحيث ينقسم من حيث إنه كثيرٌ، ثم إن الوحدة، في الوصف العرضي والذاتي، تتغاير أسماءها بتغاير المضاف إليه، فإن الوحدة في النوع تسمى مماثلة، وفي الجنس مجانسة، وفي الكيف مساواة، وفي الوضع موازة، وفي الإضافة مناسبة، وفي الأطراف مطابقة، وينبغي أن يعلم بأن الوحدة، وكذا الكثرة، من الأمور متكررة الأنواع".²

¹ ينظر: الكفوي، أبو البقاء الحنفي أيوب بن موسى الحسيني القريمي (المتوفى: 1094هـ): الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، (ص: 931).

² نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد (المتوفى: ق 12هـ): دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1421هـ-2000م، (310/3-311).

وبدمج النقلين، معاً، ومع التنبيه إلى أن الوحدة تتغير بتغير المضاف إليه، ينتج لنا عند إضافة كلمة الوحدة إلى الأمة كمضاف إليه: هي عدم الانقسام والتجزئة في صفوف أفراد مجتمع أمة الإسلام.

وأما موضوع التطابق فهو تطابق منبثق من اصطلاح الوحدة، إذ لا بد أن يكون في الأصول، خاصة العقديّة منها، وأما الموازنة والمحاذة والمقاربة التي تحملها كلمة الوحدة فنحمله على المذاهب الفقهيّة، أو العقديّة، التي تختلف في الفروع، مع عدم تأثر الأصول.

وبذلك، يخلص الباحث إلى اصطلاح الوحدة كمضافٍ حين قارنها بالأمة بالاسلامية، مع مراعاة تغير معانيها اصطلاحاً، والله اعلم.

المطلب الثاني: الوحدة في السياق القرآني

أولاً: عرض مادة (وحد) في القرآن الكريم

إن من البديهيات الأولية أننا إذا أردنا تأسيس شيءٍ فتلزمنا المادة الأساسية الخام لذلك البنيان، ولما كان ما ننشده من صرحٍ هو بحثٌ موضوعيٌّ لبيان أهمية وحدة الأمة الاسلاميّة، والخير العظيم الذي يتحصل جراء وحدتها، والشر المستطير الذي يكمن لها إذا حدث صدعٌ فيها، فإنه لا بد من عرض المادة الخام لهذا المأمول، وفيما يأتي عرضٌ للآيات القرآنية الدالة الحاتّة على موضوع وحدة الأمة الإسلامية، سواء باللفظ أو بالمعنى ولكلٍ جعل الباحث جدولاً مستقلاً -أنظر الجدولان (2،1) الملحق (أ)-.

ثانياً: الملحوظات العامة لورود مادة (وحد) في القرآن الكريم، ودلالة ورودها

إن الله، تبارك وتعالى، فضّلنا بالقرآن الكريم على الأمم أجمعين، وآتانا به من العلوم ما لم يؤت أحدٌ من العالمين، فالحمد للواحد العليم الكريم، رب العالمين الذي منّ علينا أمةً، وعلى رسولنا ﷺ، بأن أكرمنا بالقرآن الكريم، معجزاً رصيناً في بلاغته، وبديع رصفه اللغوي، ولما أيقنا، بحمد الله، أن القرآن كذلك، بتنا نبغي

بعض ما تحمله الآيات الكريمات من لفاتٍ لورود مادة الوحدة في سياق ذكرها في قرآننا العظيم، ونرجو التماس الإضاءات النورانية في آيات ربنا، جلّ وعلا، وقد لاحظ الباحث ما يأتي:

1. بشكل لافت للانتباه يلاحظ أن الله، تبارك وتعالى، أمر الأمة قاطبةً بأمرٍ عظيمٍ جللٍ، إنما هو إحدى

الركائز الأساسية التي يقوم عليها الدين، بقوله، جل وعلا، في ثاني الزهراوين: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ

جَمِيعًا ۖ﴾ [آل عمران: 103] بل أعقب بأمره بالنهي عن الضد للتأكيد: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا ۖ﴾ [آل عمران: 103]

ثم يذكرنا، جل من قائل، بالحال الغيبي الذي سيؤول إليه الأمر على صعيدي الدنيا والآخرة؛ إذ كلُّ

منهما مركَّبٌ من عنصرين يختصان بكل فردٍ مسلمٍ؛ الصعيد الشخصي، ومن ثم العام، وكل منهما

بأبعاده في الدنيا والآخرة في حال عدم وضع الوحدة الإسلامية في قمة الهرم القيمي الإسلامي.

2. وفي قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي

شَيْءٍ ۝﴾ [الأنعام: 159] ولموضوعنا من السورة التي شيعها سبعون ألف ملكٍ في حدثٍ فخمٍ وقت تنزيلها

جملةً واحدةً نصيبٌ، ومن جملة ما أكرم الله به نبيه، ﷺ، والمؤمنين، في ذلك التنزّل المبارك، هو ولاء

وبراء، من الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعًا، وكان هذا صقلًا لشخصية المسلم الحق في الفترة المكية التي

نزلت فيها هذه الآيات البينة للمسلم: ولاؤه وبرأؤه؛ فهما للمسلم أنّ أولئك غير مؤثرين في حقيقة الوحدة،

إذ لسنا منهم في شيء.

3. يحب المؤمنون النصر من الله والفتح القريب، وهذا الذي يحبونه له سننٌ كونيةٌ، وإذا ما تحدثنا عن النصر

فلا بد لنا من ذكر النصر المبين الذي قضاه الله وسطره لنا في سورة الأنفال، وفيها توجيهٌ من الله جلّ

وعلا بقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ ۝﴾ [الأنفال: 46] فيحدد لنا على ماذا نتحد، وما أسس الوحدة، ثم يبين الله، تعالى جده

وتقدست أسمائه، ما حدود الوحدة، ومن تشمل، وألا يبتئس بمن لم يكن ضمن من أرادهم الله في تأطير

الوحدة فيقول الله ربنا، جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]، فالوحدة تمتاز بمعية الله في صف المؤمنين.

4. ثم إن موضوع العنونة والتسمية إنما هو مفصول، والله الحمد، من لدن الله عز وجل؛ فهو الذي سمى الأمة بالمسلمين، وذلك من لدن آدم، عليه السلام، إلى آخر النبيين والمرسلين، سيدنا محمد، ﷺ، في آية يخبر الله تعالى أنه اجتنبى الأمة من بين الأمم قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

5. نعم المولى تعالى ظاهرة؛ إذ نرى أثر الحرص على الوحدة في تربية الرسول، ﷺ، لصاحبه الغر الميامين؛ ففي موقف واحد بهذا المقام، ندرك فهم الصحابة الكرام قول من أعزهم بالإسلام بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ [الحج: 78]. ذلك أن وزير رسول الله ﷺ، الذي أعز الله به الإسلام يقف معتصماً بالله جندياً منفذاً للأوامر في جيشٍ لشابٍ وُلِّي إمارة البعث يقود نفوساً تربت على الاعتصام بالله وحده، وفي المقابل، هو ذاته عمر الفاروق يعزل السيف المسلول خالداً، وفي لغة زماننا، كان بإمكان الأخير أن يحدث انقلاباً عسكرياً، ويضمن النتائج كذلك، إلا أن المانع هو ما سبقونا به من رغبة في الآخرة، وزهد في الدنيا، والاعتصام الخالص بالله والله، فنرى أن قيمة وحدة الأمة الإسلامية كانت هي العليا، فنبدوا التفرق، ونجحوا في السنة الكونية، فلم تذهب ريحهم، ونصرهم الباري، وفتح على أيديهم قلوب العباد، وأبواب البلاد.

6. في اجتهد هارون بغياب موسى، عليهما الصلاة والسلام، نرى تأصيلاً لمفهوم الوحدة؛ فموسى، عليه السلام، عائدٌ إلى قومه غضبان أسفاً، وقد ألقى الألواح، وأمسك بأخيه يجره إليه مستغهماً منه عن سبب عدم النهي عن ذلك المنكر الخبيث الذي وقع به بنو قومه، فأشركوا وعبدوا العجل، فالمستند الذي وطّن

عليه موسى، عليه السلام، نفسه هو أن تأصيل الإيمان في قلوب بني قومه، والنجاة من الشرك، وهو من القيم العليا في الدعوة، والذي يفجأ، ويدعو إلى التأمل البليغ، والنظر العميق، هو القيمة التي كانت مرتكز حكمة هارون، عليه السلام، في سياسته لأمر القوم حين تولى النيابة، القيمة التي بحاجة إليها كل مسلم، إن مسؤولاً، أو غير مسؤول، هي دحر الفرقة، والحفاظ على عدم تمزيق نسيج الوحدة، وهو ما قبله منه موسى، عليه السلام، بعدما انتقى هارون ألفاظاً توحى وتذكر موسى بأن هذه القيم إنما هي أصول منغرسه فيه ﴿قَالَ ابْنُ أُمٍّ﴾ [الأعراف: 150]، وقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 94]،. إذا؛ فكان من وصايا موسى لهارون أن يحرص على ألا تحصل تفرقة بين بني إسرائيل.

7. نتائج انعدام الوحدة مذمومة؛ فالعاقبة عذاب أليم، والواقع ضلال، ويكفي بتعظيمنا لها قراءة قوله تعالى:

﴿وَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 54]، وهذه الآية الكريمة أتت مباشرة بعد قوله تعالى:

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53]، وحتى حين؛ أي إلى أجل

سيأتيهم، وفي مجيئه عذابي بعد الغمرة في الضلال والغي¹، فهل نطبق الضلال أم العذاب؟

8. الوحدة من الله تبارك وتعالى، وهي متناسبة التناسب كله مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تبديل

لكلمات الله، فلا أصدق من الله قبيلاً، ولا أصدق من الله حديثاً.

9. الوحدة المرجوة في الآيات الكريمات متناسقة مع منهج الإسلام العام في التربية الذي هو الدوام والتعاهد؛

فالآيات مبثوثة في عرض القرآن من أول الفاتحة إلى آخر المعوذتين من آيات وسور مكية ومدنية.

¹ ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملّي (المتوفى: 310هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ط1، 1422هـ-2001م، (64/17).

10. الآيات الدالة على الوحدة تخاطب في أساسها القلب؛ فهذه العبادة محلها القلب والجوارح تابعة في ذلك، وعندما تصبح مستحوذة عليه ولاءً، وبراءً، وعقيدةً، حتمًا سوف يصدقها عمل الجارحة، وإن خالفها الجارحة مع سابق ولاءٍ، فإن الموضوع مغتفر.

11. النقطة المركزية التي تتمحور حولها الوحدة هي توفيقية، وليست توفيقية، وإنما بذل الوسع، واستفراغ الجهد في الاجتهاد، يكون في الوسائل التي أتاحت للمسلم في تحقيق هذه الغاية المقصودة لذاتها، والتي هي نفسها، سببٌ ووسيلةٌ لغيرها من نصرٍ وتمكين.

12. تلتقي الوحدة في محاورها العامة، وأسسها، مع مبادئ الدين العامة، ومفاهيمه العميقة كطاعة الله والرسول، والتحاب في الله، والولاء لله وللرسول وللمؤمنين، وغيرها.

13. الواحد من أسماء الله الحسنى، وفي معنى وحدانيته، جلّ في علاه، وإسقاطها على المعنى المطلوب من الأمة صولاتٌ وجولاتٌ حسنة الوجوه.

14. مصالح الأمة المعتبرة، أو المرسلّة، وحتى الملغاة المستقاة من الآيات الكريمات، تدور حول وحدوية الأمة بشكل مباشر.

15. ليس صدفةً أنه عندما يُذكر اسم رسولنا ﷺ، صريحًا في القرآن نجد الوحدة حاضرةً في السياق القرآني للآي المعطر بذكر اسمه صراحة.

16. إذا حلت مفصلية الوحدة أصبحت سيادة العالم، وريادة الأمم، لدى أمة الإسلام مسألة وقت يسير، ولا رادّ لها؛ لأنها سنّة كونية، ولعل أعداء الدين قد تنبهوا لها، وعملوا بمقتضاها.

17. فهم ممانعة الكفار والمتربصين بالإسلام، باستيضاح أي القرآن الكريم المدني خاصة، يفضي إلى أنهم يمحرون ليل نهار، ويتربصون بالأمة الدوائر، فيجب على الأمة ممانعة الممانعة من باب الأخذ بالأسباب والحيطة والحذر.

18. يلتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

أي: أنكم أنتم أمة واحدة شاءها الله، وأرادها، والحمد لله، ولم يشأ أن يكون العالم كله أمة واحدة الذي للوهلة الأولى يشعر بأنه أمر ظاهره جيد إلا أنه خلاف مشيئة الله، والفترة تطلبه؛ فكانت الميزة التي تطلبها الفترة أكد في كون الأمة الواحدة المجانسة للفترة هي أمة الإسلام، والحمد لله.

19. الأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم، بحيث لا أم لها، أو قطعت من شجرة، بل امتداد وحدتها من لدن آدم، عليه السلام؛ فمنذ بدء الخليقة، وإلى انتهائها إلى آخر الزمان مع عيسى، عليه السلام؛ ففي وصف الله للمؤمنين بأنهم أهل الجنة؛ فهم أهل الفلحة أبدية أزلية.

20. ردة فعل الأنبياء، عليهم السلام، وحال قلوبهم، عند نفور أقوامهم من الوحدة في الدعوة إليها، اقتضت أمراً ونهياً من الله لئلا تذهب النفس عليهم حسرات، وألا يحزنوا عليهم؛ فالملاحظ أن قلب الأنبياء ضاق مما يجدونه من نوايا الشقاق الذي يحدثه أهل النفاق.

21. الفرقة من الشيطان، واللحمة والوحدة من الرحمن، جلّ في علاه.

22. يأبى الله أن تكون الوحدة على أساس كفري، بل منطلقها الإيمان، وإن كانت هي القلة.

23. ترك الوحدة ضلال، وعاقبته جهنم، وجعل الله الوحدة شيئاً يدخلك الجنة.

24. الوحدة بحاجة إلى مجاهدة للنفس، ومجاهدة للكفر والكفار.

25. للمسجد محورية بالغة في وحدة الأمة؛ ففيه يتم غرس مفاهيمها، ورفع رايتها.

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة

الألفاظ ذات الصلة في معاني الوحدة

أولاً: الأخوة: أخ، في أصل الكلام أخو، وهو: المشارك غيره في الولادة من الأب والأم، أو من أحدهما، أو في الرضاعة، وتتخذ إستعارته لكل مشارك آخر في القبيلة، أو في الملة، أو في صناعة، أو في معاملات، أو في تواد، وبغير ذلك من المتناسبات. ويتضح معنى المشاركة في قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ [آل عمران: 156] أي: للذين شاركوهم في الكفر، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].¹

ثانياً: الصحبة: صاحب: الملازم، للإنسان أو للحيوان، أو للمكان، أو للزمان. وليس فرق في أن تكون مصاحبته بالجسم وهو الأساس والذي يغلب، أو بالرعاية والاهتمام، ولا يطلق عرفاً إلا للذي غلبت ملازمته، ويطلق للذي يملك الشيء: هو صاحبه، وأيضاً لمالك التصرف في الشيء، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: 40].²

ثالثاً: الاجتماع والجمع والجميع: الجمع: ضم الأمر بأن يقرب بعضه إلى بعض، يقال: جَمَعْتُهُ فَاجْتَمَعَ³، وقال، عز وجل: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: 9].

رابعاً: الاعتصام: العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك. والاعتصام: التمسك، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].⁴

¹ ينظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 68).

² ينظر: الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (المتوفى: 321هـ): جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم، للملايين - بيروت، ط1، 1987م، (1/280).

³ ينظر: المصدر نفسه، (ص: 201).

⁴ ينظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 569).

خامساً: الاستمساك والممسك: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه والتمسك بما لديه ضناً به. قال تعالى:

﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: 229]، واستمسك بالأمر: إذا تحرّى واجتهد أن يمسكه،

وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43]¹.

سادساً: الألفة: الألف من أحرف اللغة، والإلف: أن يجتمع مع التثام، ومنها: الألفة، وتطلق للمألوف: أليف

والف، ومنه: ألفنا بين القوم، والمؤلف: من رتب ترتيباً قدم فيه ما حقه التقدم، وآخر فيه ما حقه أن يؤخر،

وما ضمّ من أجزاء متباينة، وقال تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: 103]².

سابعاً: والوثاق والوثاق: اسمان للذي يوثق به الأمر، والوثقى: مؤنث الأوثق، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا

أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ﴾ [محمد: 4]³.

ثامناً: الاقتران: الاقتران كالازدواج في حقيقة اجتماع أشياءه، على قرنه بالفتح أي على سنّه، وبالكسر إذا

كان مثله بالقوة والشجاعة، وقال تعالى: ﴿أَوْجَاهَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: 53]⁴.

تاسعاً: الثبات: الثبات: جمع ثبة؛ أي جماعة منفردة، وقال تعالى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا

جَمِيعًا﴾ [النساء: 71]⁵.

الألفاظ ذات الصلة في معاني الفرقة

أولاً: الاختلاف والمختافة: والاختلاف والمخالفة: هو أخذ كل واحدٍ طريقاً غير الذي سلكه نظيره في الحال

أو القول، والخلاف يشمل الضدّ وهو أعم منه؛ لأنّ كلّ ضدّين مختلفان، وليس كلّ مختلفين ضدّين، ولما

¹ ينظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: 170هـ): العين تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط1، (318/5).

² ينظر: المصدر نفسه، (ص: 81).

³ الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 853).

⁴ ينظر: الهروي، تهذيب اللغة، (84/9).

⁵ ينظر: المصدر نفسه، (275/1).

بات اختلاف الناس بالمقال قد يفضي إلى التنازع استعير الخلاف للمجادلة والمنازعة، وقال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ

الْأَحْزَابُ﴾ [مریم: 37]¹.

ثانيًا: التنازع: نزع الشيء: اجتنبه من مقره، مثل انتزاع القوس من كبده، ويكون ذلك في الأعراس، وفي

غير الأعراس ومنه: نزع العداء والحب من القلوب، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ

غَلٍّ﴾ [الأعراف: 43]².

ثالثًا: الفرقة والفلق: الفرق يقرب الفلق إلا الفرق يكون، اعتبارًا، بالانفصال، والفلق يطلق، اعتبارًا، بالانشقاق،

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: 50].

والفرق: القطع المفصولة، ومنه: الفرقة في الجماعة، ويقال: فلق الصبح، ويقال: فرق الصبح، ومن هذا قول

الله تعالى: ﴿فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63]³.

رابعًا: العداوة والمعاداة: "بالعدالة في التعامل، فيقولون له: العدوان والعدو، وتارة يكون الاعتبار بالقلب،

فيقال له: العداوة والمعاداة، وأحيانًا بالمشي، فتقول: العدو، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ

بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: 91].

خامسًا: البغضاء: "البُغْض: نفور الطبع عن الأمر الذي يرغب به، وهو يقابل المحبة، فالحب انجذاب النفس

إلى ما ترغبه⁴، وقال تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [المائدة: 14]

سادسًا: الكره: الكُره، والكُره واحد، نحو: الضَّعْف والضُّعْف هذا محملٌ، ومحمل آخر هو أن:

الكره: العنت الذي يصيب الإنسان من الخارج فيما يحمل عليه بإكراهه.

¹ ينظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 294).

² ينظر: المصدر نفسه، (ص: 798).

³ ينظر: المصدر نفسه، (ص: 632).

⁴ ينظر: الفراهيدي، العين، (215/5).

والكَرْهُ: الذي يصيبه من أصل نفسه، والشخص يعافه؛ وذلك على ضربين:

أحدهما: ما يعافه من جهة الطَّبع.

والثاني: ما يعافه من جهة العقل، أو التشريع، ولأجل ذلك يصح أن يقول الإنسان في ذات الشيء:

إني أَكْرَهُهُ وأُرِيدُهُ، بمعنى أنني أريد هذا الشيء من جهة الطَّبع، وأكرهه من ناحية العقل أو التشريع، أو أبغيه

من جهة الشرع أو العقل، وأَكْرَهُهُ من جهة الطَّبع، ومنه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ

لَكُمْ﴾ [البقرة: 216]¹.

1 ينظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، (ص: 707).

الفصل الثاني

فضل الوحدة وذبم الفرقة في دعوة الأنبياء عليهم السلام

المبحث الأول: فضل الوحدة

إن الله تبارك وتعالى يريد بأمة الإسلام اليسر ولا يريد بها العسر، والله جلّ في علاه قد قضى، والحمد له وحده، أن أمة الإسلام خير أمة أُخرجت للناس، ولا بد لهذه الأمة أن يتحقق لها وعد من لا يخلف الميعاد؛ إذ هي على موعدٍ قريبٍ لبلوغ هذا الدين، ما بلغه الليل والنهار، وظهور الإسلام على الدين كله ودخوله كل بيت مَدَرٍ وَوَبَرٍ بعز عزيز، أو بذل ذليل.

وما يجب أن يعلم عند كل مسلم أن لهذه الوعود أسبابًا سخرها خالق السموات والأرض كي تسير فيها حركة الكون للمقصود الذي خلقت له، والمسلم الكيس الفطن هو الذي طَوَّع هواه، وزَكَّى نفسه وفق هذه الأسباب، ومن هذه القوانين الربانية، موضوع وحدة الأمة، ونذب الفرقة، وهو ركنٌ أساسٌ، وملاحظٌ في دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم، وعلى رأس هذه الدعوات، دعوة خير الخلق، وحبيب الحق سيدنا محمد، ﷺ، المشهود لها بالكمال والتمام من رب العالمين، والحمد لله.

المطلب الأول: وحدة الأمة إرادة ربانية

يبرز موضوع الوحدة في سيرة نبينا محمد، ﷺ، منذ فجر دعوته، ﷺ؛ حيث يلاحظ ذلك في القرآن الكريم في عددٍ من الآيات في السور المكية؛ فذلك الكتاب لا ريب فيه، جعله الله هدى للمتقين؛ فهذه الآية من الخلق أوجب ربنا لها أن تكون أمةً واحدةً، وقصّ عليها السلالة النقية من الأنبياء ودعوتهم أقوامهم، فكانت الآية الكريمة قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

وقد جاءت هذه الآية في ختام معرض جليل افتتح بذكر دعوة موسى وهارون، عليهما السلام، وما آتاها الله من الفرقان والضياء والذكر للمتقين مع بيان صفاتهم، ثم ذكر إبراهيم، عليه السلام، تفصيلاً مع قومه في

إنكاره الشرك منهم، وبيتغي بهم التوحيد، وكانت الآيات الآتية لله، ولمن تبع إبراهيم، وكانت ذريته منبع الأنبياء من بعده؛ فأخلفه الله إسحاق ويعقوب، وفي السياق، ذكر الله لوطاً، عليه السلام، في تفصيلٍ للملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ثم يأتي القرآن الكريم على ذكر أيوب، عليه السلام، وكشف ما به من ضرر، وذكر صبر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وإدخالهم في رحمة الله، عليهم جميعاً السلام، وفي هذه البركات، مما يتلوه علينا القرآن من أنباء الغيب والذكر الحكيم، يعلمنا القرآن كنزاً عظيماً من كنوز الدين؛ ألا وهو دعاء ذي النون، عليه السلام، دعاء أوله تسبيحٌ، وأوسطه تهليلٌ، وآخره إقرارٌ بالذنب، وفضله أنه ينجي من الغم، والاستجابة غير مقصورة على حالٍ، بل ما زالت بركات السماء تهبط بالوحي على الأرض، فنتعلم استجابة الله تعالى لسيدنا زكريا، وإصلاح زوجه له، فوهب له يحيى، عليهما السلام، ويختتم الله تعالى بذكر عيسى، عليه السلام، وأمه، في إشارة لطيفة بأنها التي أحصنت فرجها فجعلها الله، وابنها، آيةً للعالمين، عليهم السلام جميعاً، هذا الذكر من أنباء الغيب جاء بعد ذكر عاقبة الذين استهزأوا بالرسول، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا ناصر إلا الله، وتأتي الآية الكريمة داعيةً إلى الوحدة بشكل مباشر في قوله تعالى:

﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]

بعد هذا السياق الرائع، مع التنبيه إلى اسم السورة كذلك، سورة الأنبياء، وهي سورة مكية تهدف إلى ترسيخ أعمدة الدين، وتأسيس هذا البنيان المتين، وذكر الاقتداء بدعوة الانبياء، وورثة هذه الأمة لما جاء به السابقون، لكي تكون أمة الإسلام هي خير الأمم.

ويستشعر من قول الله تعالى أن الملة والدين واحدٌ، وواجب الناس عبادة الله الواحد الأحد¹، وقد قال مقاتل بن سليمان: "إن هذه أمتكم أمة واحدة قال هذه ملتكم التي أنتم عليها، يعني شريعة الإسلام هي ملّة واحدة، كانت عليها الأنبياء والمؤمنون الذين نجوا، وتقطعوا أمرهم بينهم فرقوا دين الإسلام الذي أمرهم الله به فيما بينهم فصاروا زبّاراً؛ فرقاً²".

¹ ينظر: الطبري، جامع البيان، (392/16).

² مقاتل أبو الحسن، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ): تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحات شحاته، دار إحياء التراث - بيروت، ط1، 1423هـ، (92/3).

وعليه، فإن هذه أمتكم في كونها على الحق مجتمعة، فإذا افتقرت فإن من خالف الحق لس داخلًا فيها، ووصفها بأنها أمة واحدة معناه أن هذه أمة واحدة ليست أممًا، ويحتمل المعنى أن تكون أمتكم في معنى التوكيد؛ كالقول إن أمتكم كلها أمة واحدة، والله، تبارك وتعالى، قد أخبرهم بأن أمر الحجة واحد، وأنهم افترقوا؛ لأن تقطيع الأمر فيما بينهم فرقة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۖ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الأنبياء: 92-93]¹.

وممن ارتضى كذلك أن معني الأمة في هذه الآية الدين، الإمام الماتريدي، وهو ما ذكره في تفسيره؛ إذ يقول، رحمه الله تعالى: "(أمة)، أي: دينًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92]، أي: دينكم دينًا واحدًا"².

وقال الماوردي، رحمه الله "قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92] أي بأن دينكم دين واحد، ويحتمل عندي وجهين آخرين؛ أحدهما: أنتم أهل زمن واحد، فلتكونوا على دين واحد، والثاني: أنتم خلق واحد، فلتكونوا إلا على دين واحد، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ فأمر ألا يعبد سواه، ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الأنبياء: 93]، أي: اختلفوا وتفرقوا في الدين"³.

وهناك آية شبيهة بها في سياقٍ شبيه، يهدف إلى بلورة وجهة الأمة إلى الوحدة، مع ذكر خالقها الذي يجب أن تتفق الأمة على عبادته، وجاءت هذه الآية في سورة (المؤمنون)، وهي بعد سورتي الأنبياء والحج ترتيبًا، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

¹ ينظر: الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (المتوفى 311هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت ط1، 1408هـ-1988م، (404/3).

² الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود (المتوفى: 333هـ): تأويلات أهل السنة، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ-2005م، (591/6).

³ الماوردي: النكت والعيون، (469/3).

وبمثل ما أول نظيرتها الطبري، كذلك تأول هذه الآية؛ إذ روى الطبري عن ابن جريج في قوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ

أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52]، قال: "الملة والدين"¹، وقال الزجاج، رحمه الله

تعالى: "عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52]؛ أي لأجل

هذا فاتقون، وجملة تأويلها أن دينكم دين واحد؛ وهو الإسلام، وأخبر الله، عز وجل، عن أقوام فرقوا دينهم

أدياناً، فقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾².

وهناك بعدان آخران؛ أولهما ما قاله الماتريدي، رحمه الله: "وجائز أن يكون قوله تعالى: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

أي: لا تختلفون في رسولكم إلى يوم القيامة، كما اختلفت الأمم الذين كانوا من قبلكم في رسلهم؛ بل تجعلون

رسولكم بشراً، رسولاً على ما هو عليه، من دون تأليه، وأما سائر الأمم فإنهم قد فرطوا فيهم؛ حتى كان فيهم

من جعل الرسول ابناً له؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، وأما هؤلاء، فإنهم لا يزالون على أمر

واحد، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾: فجائز أن يكونوا واحداً، وجائز أن

يكون قوله فاتقوا مخالفتي، أي اعبدوني وأطيعوني³.

والبعد الثاني بُعد إشاريٍّ مستساغٍ لطيف بأن معبودكم الله تعالى واحد، ونبيك محمد، ﷺ، واحد، وشرعكم،

الذي ارتضاه الله لكم، واحد؛ إذ أنكم سواء في أصول الشرع، فلا تسلكوا أخريات السبل فتتهوي بكم في وديان

الضلال، والزموا نهج السلف، وإياكم أن توافقوا ابتداع الخلف، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، فلتخافوا أن تخالفوا أمري،

وعليكم معرفة جليل قدري، وحافظوا في مجرى المقادير سري، ولازموا ذكرى بقلوبكم، تحظوا في المال غفراني،

وتجدوا بالجميل برِّي⁴.

¹ الطبري: جامع البيان، (60/17).

² ينظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، (15/4).

³ ينظر: الماتريدي: تأويلات أهل السنة، (473/7).

⁴ ينظر: القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465هـ): لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط3، 1431هـ،

الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، (577/2).

ومن المتأخرين الذين كتبوا في التفسير، وتعرضوا لتأصيل مبدأ الوحدة وإبرازها، الإمام الشعراوي، رحمه الله تعالى، إذ يقول: "... ولَمَّا أن كانت أُمَّتكم أمة واحدة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52] اتقوا الله في هذه الأمة الواحدة، وحافظوا على وحدتها، وإياكم وما يُفَرِّقها من اختلافاتٍ حول الفروع؛ إن تنازع بعضكم فيها اتهموا الآخرين بالكفر؛ لأنهم يبالغون أن يُنهبوا من الدين الجامع هيمنة زمانية لحظوظ أنفسهم¹.

وبعد هذه الآية الكريمة، يبيِّن لنا الله تعالى حال الأقوام المرسل إليهم كي نحذر العاقبة التي وصلوا لها، فيقول تعالى: ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53].

ولكلمة زُبُرًا قراءة بضم الباء، وأخرى بفتحها²، فأما الضم فقال فيه مقاتل بن سليمان: "﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ فرَّقوا دينهم الإسلام فيما بينهم وهو الذي أُمروا باتباعه، فأصبحوا زُبُرًا، يعني: فرَقًا³.

وعليه، فدعوة الأنبياء، عليهم السلام، في توحيد الأمة هو أمرٌ توقيفي؛ أي هو مراد الله تعالى ووحيه لأنبيائه، عليهم السلام، جميعًا، وإن أمة الإسلام ليست بدعًا من الأمم، إذ شرع الله لنا من الدين ما وصى به المرسلين السابقين؛ فوصيته تعالى لنا هي الوصية نفسها التي جاء بها جبريل للأنبياء من قبلنا، وهذا مسوتحي من قول الملك، جل في علاه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

¹ ينظر: الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ): تفسير الشعراوي-الخواطر، مطابع أخبار اليوم -مصر، ليس على الكتاب الأصل -المطبوع- أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997م، تفسير الشعراوي، (10057/16).

² ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن عبد الله (المتوفى: 370هـ): الحجة في القراءات السبع، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق -بيروت، ط4، 1401هـ، (ص: 257).

³ مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، (92/3).

فبعد استقرار ما شرع الله تعالى لنا من محاسن شرائع الأنبياء القائمة على الطاعة لله، وإقامة الإخلاص فيها، وإظهار الأخلاق¹، تأتي ثنية الفهم، ليقع الفهم موقعه المراد له، فيتم للمسلم فهم فضل الوحدة في أن ضدها منهي عنه في سياق الوصية والشرعية، وهو ما يكبر على المشركين بالله من أن يخلصوا التوحيد لله، وإفراده تعالى بالألوهية والتبيري مما سوى الله تعالى من المعبودات والأنداد². وبما أن الأمور تعرف بأضدادها، فالفرقة يريدها الشيطان، وهي ديدن المشركين، الذين لا تناسبهم الوحدة على أساس الدين الواحد والرب الواحد؛ لأن لكل منهم هوى متبعًا وشرعًا يحقق مصالحه وغاياته.

ثم يأتي بيان سبب الفرقة، ومن بعدها الأمر المباشر من الله تعالى للرسول، ﷺ، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٥﴾ [الشورى: 14-15].

فما تفرق المشركون بالله في أديانهم فباتوا أحزابًا وفرقًا، إلا بعد ما أتاهم العلم، بأن الذي كلّفهم الله تعالى به هو أن يقيموا الدين الحق، فلا يتفرقوا فيه³، وهو الذي جاء التوكيد عليه من الله تعالى بالأمر المباشر للنبي ﷺ، ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾؛ أي إلى التوحيد⁴، التوحيد الذي هو أساس الوحدة، وقد أجاد النسفي، رحمه الله، بتقريره

¹ ينظر: التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع (المتوفى: 283هـ): تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل العيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1423هـ، (ص: 138).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (48/20).

³ ينظر: المصدر نفسه، (514/21).

⁴ ينظر: العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ): تفسير القرآن، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط1، 1416هـ، (140/3).

هذه النتيجة بسبب لطيف للمفردات، وفهم عميق للآيات، إذ يقول رحمه الله: "فَلَذَلِكَ" فلأجل هذه الفرقة، ولما نتج جزاءها من تفرق الكفار فرقاً {فَادَّعَ} للاتفاق والألفة على الملة الحنيفية القويمة، {وَأَسْتَقَمَ} عليها والترم الدعوة إليها، {فَكَمَّا أُمِرْتُ} جاءك الأمر من الله {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمَ} الباطلة المنحرفة، أي بكتاب ثبت أن أنزله الله تعالى؛ يعني الإيمان بكل الكتب التي أنزلت؛ لأن الذين تفرقوا صدّقوا ببعض، وجدّوا ببعض، كقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ} إلى قوله أولئك هم الكافرون حقاً، {وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ} عندما أحكم بينكم لما تختصموا فتتحاكموا إليّ، {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} أي جميعنا عباده، {لَنَّا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ} هو كقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} ويحتمل أن يراد المعنى إنا لا نؤاخذكم بأعمالكم وأنتم لا تؤاخذوننا بما نعمل، {لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ} أي لا اختصام؛ فالحق قد تبين، وبتم محاججين به، فلا داع إلى المحاجة، أي لا مدخل للحجة بيننا؛ فالمحتاجين يأتي كل بحجته، {اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا} عند قيام الساعة، {وَالِيهِ الْمَصِيرُ} المال والفصل فيقضي بيننا وبينكم وينتقم لنا منكم¹.

ما زال شرعنا الحنيف، وقرآننا العظيم، يلقي بالنور في مجابهة ظلمات الفرقة وذمها، مبيناً لنا أن الوصية بالألفة والاجتماع، ونبذ الفرقة والاختلاف، هما أساس فيمن سبق ممن صدق من أمم الأنبياء، عليهم السلام؛ فالله، جل وعلا، لا يُعبد إلا بما شرع، وعلى النحو الذي أَرادَه وارتضاه، جل وعلا، لذاته العلية، ولما كان ذلك كذلك، طُوبى المسلمون بما طالب به سلفهم من الأنبياء أممهم، وقد فهم هذا المعنى السابقون من المفسرين؛ إذ يقول ابن جرير الطبري، رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره: {شَرَعَ لَكُمْ} مولاكم أيها المكلفون فيعمل به: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} لرسوله محمد، ﷺ: وقضى من الدين لكم الذي أوحينا إليك يا محمد، فأمرناكم به... ومن المسلمات في ديننا الحنيف أن وصية واحدة هي التي أوصى الله بها كل أنبياءه؛ وهي أن يقيموا الدين الحق، وألا يتفرقوا فيه... والعمل يكون على ما فرض لكم وشرع، وإياكم والاختلاف في الدين الذي

¹ النفسى، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (المتوفى: 710هـ): مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب - بيروت، ط1، 1419هـ، (249/3).

أوصيتم بأن تقوموا به، مثل اختلاف الأحزاب في ما سلف من الأمم، {وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} لَأَنَّ الجماعة ثقة والفرقة هلكة¹.

فإنَّ دين الإسلام هو ما جاء به أنبياء الله جميعهم يتأصل حول افراد الله وحده بالعبادة فلا شريك له وهذه العبادة تكون على النحو الذي شرعه هو تعالى لهم، جلَّ في علاه، وفي هذا يقول رسول الله، ﷺ: "نحن معشر الأنبياء أولادِ ثلاثِ ديننا واحد"²، فالأنبياء متشاركون فيما بينهم بقدر مشترك هو عبادة الله وحده لا شريك له، مع اختلاف مناهجهم وشرائعهم، كقوله جل جلاله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ [المائدة: 48] ولهذا قال عزَّ وجلَّ هاهنا: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه؛ فأوصى الله تعالى النبيين كلَّهم، عليهم السلام، بالجماعة والاتلاف، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة³.

"فشرع، أي: بين وقضى، {مَا وَصَّي بِهِ نُوحًا} وهو أول نبي بشريعة، أي: أوصيناه وإياك يا محمد ديناً واحداً، {وَالَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ} من الكتاب وتشريعات الإسلام، كإقامة الصلاة، وأداء حق المال، وإفراد الله بالعبادة والبراءة من المشركين، فهذا ما شرع لهم من الدين، وهو الذي ذكر في التمام من بعد، وهو قوله {أَنَّ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} فأرسل الأنبياء جميعهم لأن يقيموا الدين، والاتلاف، والاجتماع، وترك التفرقة والاختلاف⁴.

ومن إقامة الدين إقامة الوحدانية لله، والتصديق به، وامتنال أمر رسله، والعمل بما شرع، بأن يحلَّ الحلال، ويحرِّم الحرام، واختصاص إبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، بالذكر مع نبينا، ﷺ؛ لأنهم أصحاب

¹ الطبري: جامع البيان، (481/20).

² البخاري في الأنبياء باب 48 حديث 3258، (1270/3)، ومسلم في الفضائل حديث 143، 144، 145 (96/7). وأبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (المتوفى: 275هـ): سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العلمية، ط1، 1430هـ، باب 13، حديث 4675، (65/7).

³ ينظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ط1 1419هـ، (178/7).

⁴ ينظر: البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، (المتوفى: 510هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ، (187/7).

الشرائع، ثم إنه لما أوصاهم سبحانه، بإقامة الدين، حذرهم من التفرق، فقال: {وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} والمعنى: لا تختلفوا في الإيمان بالله وتوحيده، وطاعة الرسل، وقبول أوامره، فإن هذه الأمور محل اتفاق بين الشرائع، وتطابقت عليها الديانات، فليس الخلاف حاصل فيها، ولا في فروع المسائل التي لا يحسم فيها الدليل، وتتباين فيها العلامات، وتتفاوت فيها القرائن والأذهان؛ فهي من مظان الاجتهاد، ومطارح الخلاف المستساغ، ثم أردف، تعالى، أن الذي قضاه من الدين قد ثقل على أهل الشرك¹.

وتابع الشعراوي روح الكلام، فقال، رحمه الله تعالى: القول في هذا أنه يجيء في شيء واحد، متعلق بما ثبت من تشريعات السماء، وهي مسألة سقف العقيدة والإيمان بالله الواحد، بخلاف الذي يخص قضايا الحياة فإنك تجد أحكاماً في هذه الحركة بحسب ما يطرأ عليها من توسعات، ولهذا، عندما جاء محمد، ﷺ، أعطى أموراً يعالج بها أشياء لم تكن معهودة في زمن الأنبياء الأولين².

وفي موضع آخر، يقول، رحمه الله تعالى: ثمّة أصول أتت بها جميع الكتب المنزلة، وهناك أيضاً وقائع نبأت عن وقوعها الرسالات السماوية، وأخبرنا رسول الله، ﷺ، بالذكر وقد حوى هذه الأخبار³، ويكمل قائلاً: إن أسمى قيم الدين هي مسألة العقيدة الإيمانية، وهي أفراد الله بالعبادة وحده وبالتالي الذي آمن يكون المعني بالأوامر التكليفية؛ لأن الحق، سبحانه، حين يأمر «افعل» وينهى «لا تفعل» فالله سبحانه لا يخاطب بها إلا لمن صدق به إلهاً فرداً، أما من لم يؤمن، فالله سبحانه لا يخاطبه بأي حكم⁴.

فالأمر بإقامة تشريعات الدين كلاً؛ أصولاً وفروعاً، وإقامته بأنفسكم، وبذل الوسع في إقامته على غيركم، فالتعاون يكون على أساس التقوى والبر وليس على أساس الإثم والعدوان، {وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} فعلى أصول الدين

¹ ينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى: 1250هـ): فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق - بيروت، ط1، 1414هـ (606/4).

² ينظر: الشعراوي: تفسير الشعراوي، (508/1).

³ ينظر: المصدر نفسه، (5931/10).

⁴ ينظر: المصدر نفسه، (6596/11).

وفروعه ليكن منكم الوفاق، وإياكم أن تشتتكم المسائل، وتشيعكم شيعاً، وتكونوا أحزاباً تكتون العداوة والبغض لبعضكم بعضاً مع أنكم متفقون في أساس دينكم¹.

فهذه أعظم نعمة من بها الرب على خلقه، بأن ارتضى لهم أفضل دين وخيره، وأزكى وأطهر الشرائع، دين الإسلام، الذي ارتضاه تعالى لأصفياه المنتجبين من العباد، خيار الصفوة، وهم أولو العزم من الرسل، فهم أسمى المخلوقات درجات، وأكملهم بالنظر الى كل جانب؛ فدين الله المشروع لهم متناسباً مع حالهم، ومجانساً كمالهم، فكان كمالهم واصطفائهم، لأجل قيامهم بالدين، فلولا وجود الدين الإسلامي، لامتنع ارتفاع أحد من الخلق؛ فالإسلام السعادة حقيقتها، الكمال جلّه، وهو متضمن القرآن العظيم، وهو الدعوة إلى التوحيد الخالص وامتثال الآداب والأعمال ومحاسن الأخلاق، ومن ألوان الألفة في الدين، وعدم الفرقة فيه، ما أمر به الله تعالى من عامة الاجتماعات، كمشهد الحج والعيدين، والجُمُعات والفرائض الخمس وميادين القتال، وغيرها من العبادات التي لا تحصل، ولا تكمل، إلا بالاجتماع عليها، وانعدام الفرقة².

المطلب الثاني: الوحدة توحيداً للكلمة ورص الصفوف

إن وحدة الأمة الإسلامية لتذنب في بوتقتها المباركة فوارق الجاهلية الأولى معايير وعادات؛ فقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10] جعل من المسلم لا يفرق بين عربي وأعجمي، أو أسود وأبيض، بل إن الإسلام أرسى مفاهيم مبنية على اليقين الأخروي؛ فمثال ذلك: الغني في الدين هو غني النفس، والذي يكون فقيراً في عرف الناس هو من ليس بصاحب مالٍ وفيرٍ أو جاه، وقد يكون في أعالي الفردوس من السابقين السابقين؛ إذ الميزان الحق الذي فيه يكون الرقي في الدرجات العلا عند الله، تبارك وتعالى، هو كما قال، جل في علاه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، وقد

¹ ينظر: المصدر نفسه، (6597/11-6599).

² ينظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: 1376هـ): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، (ص: 754).

فهم الأنبياء، عليهم السلام، في منهجهم لتحقيق الوحدة الإسلامية أن الألفة والاجتماع والوحدة قد جاءت لتحصيل مصالح العباد في الدارين، وهي من مقاصد الشريعة الأساسية، والأتان بهذه المنافع يكون بإحقاق الأمور التي تجلب المصالح، وتدفع المفاسد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإن وجوب تحقيق وحدة صف المسلمين ثابت بنصوص الكتاب والسنة المتأزرة المتضافرة، وهذا الوجوب حاصل، كذلك، بالعقل والنظر الصحيحين، فيتبين فضل الوحدة، ودم الفرقة في الآخرة،

يريد الله تعالى أن يكون الصف المسلم موحدًا مرصوصًا كأنه بنيانٌ مرصوصٌ، وهذه الصفة للمسلمين سببٌ في غيظ أعداء الدين، إذ يقول تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]، ونرى الطبري في تفسيره يعضد الفكرة المركزية من موضوع الوحدة فقال إن السيئة "اختلافٌ يكون بين جماعتكم"¹.

يقول ابن المنذر: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ لما رأى الكفار من المسلمين اجتماعً وائتلافً وظهورًا على عدوهم أغاظهم هذا، بينما إذا رأوا افتراقً ومخالفةً، أو أصيب طرفٌ من أطراف المؤمنين سعدوا وأعجبوا بهذا...².

ومن الأساليب التربوية في تأصيل موضوع الوحدة لأمة خير الخلق هي سرد قصص من سبق من الأنبياء والرسول، فالله تعالى قص علينا أحسن القصص من المصطفين الأخيار؛ أنبياء الرحمن الذين برز حرصهم على لحمة الصف الواحد؛ فما زالت الآيات المكية تعنى بهذا المفهوم في ذكر قصة موسى، عليه السلام، مع هارون لما من الله علينا بأنباء الغيب التي أوحاها للنبي، ﷺ، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْوَمُوا إِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ

¹ الطبري: جامع البيان، (155/7).

² ينظر: ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري (المتوفى: 319هـ): تفسير ابن المنذر تحقيق: د. سعد بن محمد السعد، دار المآثر - المدينة النبوية، ط1، 1423هـ، (350-348/1).

عَلَيْهِمْ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ [طه: 90-93].

في حقيقة الأمر، إن هارون، عليه السلام، لم يعصِ جوهر أمر موسى، عليه السلام، بل اتبعه أحسن الاتباع؛ فهارون، عليه السلام، نهاهم عن المنكر الذي بدر منهم، وحذّره من الفتنة التي وقعوا بها في غياب موسى، عليه السلام، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن اتخذوا العجل من بعده -وهم ظالمون- معبوداً لهم، لكن فهم هارون عن موسى لمقصود الله تبارك وتعالى، كان الفهم الذي مفاده أن فضل الوحدة، وعدم الإتيان بالفرقة والتنازع بين أبناء بني إسرائيل، ما بين متبع لهارون، عليه السلام، ومتبعٍ للسامري أولى؛ فقد أخبرنا الله تعالى، جلّ في علاه، عن تعليل موقف بقوله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: 94]، هارون فالمنطلق الذي لا مساومة عليه، والقيمة العليا التي بذل هارون، عليه السلام، الوسع، واستفرغ الجهد في المحافظة عليها، مع تغير المعطيات شتى، هي أنه خشي أن تضرب أركان الوحدة، وتحصل الفرقة، وحينها، يكون الوصف حقيقةً أنه لم يرقب القول، وفي إرساء سفينة بني إسرائيل في ميناء الوحدة يكون قد رضي موسى، عليه السلام، من اجتهاد أخيه هارون، عليه السلام.

يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي؛ فلو أنني أنكرت عليهم لأصبحوا فريقين؛ يقتل الواحد الآخر، وإني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قلبي؛ ولم تحفظ ما وصيتك به، وفي الأعراف قوله، سبحانه، حكاية عن موسى عليه السلام لهارون: اخلفني في قومي وأصلح...¹.

وهارون نادى موسى، عليه السلام قائلاً، ولم يقل: "يا ابن أبي"، وهما لأُمٍ واحدةٍ ولأبٍ واحدٍ، ليستعطفه على نفسه برحم الأم؛ لأنها آكدُ في الرحمة، وكان استضعاف القوم له: بأن تركوا طاعته، ولم يتبعوا أمره،

¹ ينظر: مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، (39/3).

بل كادوا يقتلونه، أي أوشكوا وقاربوا على أن يقتلوه، لكنهم لم يفعلوا، إذًا، فإن قول هارون لأخيه موسى: لا تجعلني في الذي وجدت عليّ، ومعاقتك لي فإنني لم أخلف أمرك، في محل من عصاك فأتى نهيك، فظلم نفسه، وعبد من لا يستحق العبادة فعبد من بعدك العجل، فلم أقَرهم على أي شيء من هذا ¹.

وقد كره الصالحون الفرقة قبلنا، حيث ذكر ابن أبي حاتم في قول الله تعالى: إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، قال: "قد كره الفرقة الصالحون قبلكم" ²، وقال الماتريدي: "إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي" هذا أيضًا يخرج على وجهين:

أحدهما: أني خشيت إن اتبعتك، وصرت إلى ما صرتلأنك لو نهيتهم عما اختاروا من عبادة العجل، وبينت لهم السبيل، لعلهم يتبعونك، فحيث لم تفعل فأنت الذي فرقت بينهم.

والثاني: على تأويل القتال والحرب في قوله: "ألا تتبعن" إني خشيت لو قاتلتهم، ونصبت الحرب بينهم، صاروا فريقين، فإذا تفرقوا اقتتلوا، وسفكوا الدماء وتغافوا، فترك القتال لما أطمعوه الإيمان إذا رجع إليهم موسى ونهاهم عن ذلك، فلعل سنته في القتال مع من لم يطمع منه الإيمان، هذا على تأويل من يقول بأن هارون اعتزلهم لما عبدوا العجل مع عشرة آلاف نفر، وأكثر، أو أقل على ما ذكر. ³

وقول الله تعالى: {إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ} هو إخبارٌ بجواب هارون عليه السلام لأخيه موسى، عليه السلام، في قوله تعالى: {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، وفيه وجهان:

أولهما: فرقت بينهم بالذي وقع من اختلاف العقيدة، والثاني: فرقت بينهم بأن قاتلت من عبد العجل منهم.

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (460/10).

² ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي (المتوفى: 327هـ): تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط3، 1419هـ، (2432/7).

³ الماتريدي: تأويلات أهل السنة، (302/7).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فيه وجهان:

أولهما: لم تعمل بما أوصيتك، والثاني: لم تنتظر العهد الذي لي¹.

وعند الواحدي: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ [طه: 92] فعبدوا العجل، ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾، أي:

منعك من أن تتبني وتلتحق بي، أف عصيت أمري إذ مكثت بينهم، وبأن منهم الكفر، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته

غضباً منه عليه ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: 94] قرئ بالفتح والكسر²، ومعنى: الكلام ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا

بِرَأْسِي﴾ [طه: 94] أي: بشعر رأسي، إني خشيت إن تركتهم ولحقت بك، ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي

إِسْرَءِيلَ﴾ [طه: 94] كنت سببا في فرقة جماعتهم؛ وذلك أنه لو لحق بموسى لأصبحوا شيعة، فريفاً

يلحقون موسى معه، وفريفاً يتخلفون عنه من الإيمان والإنكار على عبدة العجل، وفريفاً مع السامري، فلا

يسلم بأن يفضي الاختلاف إلى تسافك الدماء، فاعتذر بهذا، وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: 94]، فلم

تحفظ مقالتي لما أوصيتك بأن تخلفني في القوم، وعندما تعذر هارون بهذا ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ...﴾³.

فاعتذار هارون بعذر درء المفسدة الأعظم بالمفسدة الأقل، وأنه، عليه السلام، اختار أهون الشرين، وأخف

الضررين، وهو اعتذار مقبول عند موسى، عليه السلام؛ فهذا الفقه من هارون كان مستنده ما أوصاه به

موسى، عليه السلام، فلعل موسى، عليه السلام، إنما أمره بالذهاب إليه شريطة ألا يفضي هذا إلى فساد في

بني إسرائيل، فلما قال موسى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (92) ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾، فتأول هارون، عليه السلام، بأنك

إنما أمرتني باتباعك إذا لم أمن الفساد في القوم، فلو جئتك مع حدوث الفساد ما كنت مراقباً لوصيتك، ومتبعاً

قولك على التحقيق⁴.

¹ ينظر: الماوردي: النكت والعيون، (421/3).

² ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، (ص: 246).

³ ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الشافعي النيسابوري (المتوفى: 468هـ): الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ-1994م، (219/3).

⁴ ينظر: الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين خطيب الري (المتوفى: 606هـ): مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3، 1420هـ، (94/22).

المطلب الثالث: رحمة الله لأهل الوحدة في الدين

إن رحمة الله تعالى تنزل على من التقت قلوبهم على طاعته، وتآلفت على محبته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: 118-119]

إن الاستثناء في الآية الكريمة الآتية من الله تعالى، الخالق البارئ ملك يوم الدين الفعال لما يريد، استثناء لأهل رحمته تعالى؛ فالله تعالى يستثني ثلثة من الناس هم المصطفون الذين أرادهم، وليس بالغريب أن يكونوا هم أهل الوحدة، والألفة، والاجتماع.

وهنا الخطاب يخبر الله تعالى بأنه لو أراد، لجعل الناس جميعهم أمة واحدة على دينٍ وشرعةٍ بغير اختلاف، بأن خلقهم مسلمين جميعهم. {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} يقول الله عز وجل: وما فتئ الأناس في اختلاف أي هو الاختلاف في الأديان، أي ما فتئ البشر في اختلاف في شتى الأديان، من بين متنصر ومتهود و متمجس، ونحوهم، فاستثنى الله من هؤلاء الذين حلت لهم الرحمة، وهم المسلمون؛ فهم أهل الحق في مقابل أهل الباطل، علماً أن أهل رحمة الله أهل جماعة، وإن افرقت أجسامهم ومساكنهم، وأهل المعصية أهل افتراق، وإن اجتمعوا في نواديهم وأجسامهم، وما زال البشر في اختلاف بالأهواء حتى يصيروا الى نحلٍ متشعبةٍ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ، فاطمأن قلبه بالإيمان بالله، وصدق أنبياءه، فهم في توحيد الله متفقون، وبالذي أوحى إليهم من الله مصدقون، فكان الجزاء في الآية التي تليها فقال الله، جل ثناؤه، اتباعاً لذلك: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: 119] وبهذا برهانٌ بيّن أن ما جاء من ذكر من قبل إنما هو إخبار عن فرقة الناس، فهو خبرٌ عما يوجب لهم النار فهو اختلافٍ محمول على الذم¹.

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (632/12-637).

وفي تنمة الآية {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}، ذلك إما يعود الى الاختلاف فخلقهم ليكونوا إما من أهل الرحمة فإن اختلفوا فهو خلاف لا يضرهم وهم المؤمنون، في مقابل الكافرون فلا يرحمهم الله فيختلفون الاختلاف الذي يرددهم، وقد يعود اسم الإشارة الى الرحمة فيكون المعنى ولذلك خلقهم أي وللرحمة خلقهم.

ثم رد الطبري شبهة الجبرية¹، فقال، عليه رحمة الله: وإن قال قائل: فإن كل تأويل ذلك كما ذكرت، فلماذا يُلام المختلفين الاختلاف، إذا كان خلقهم خالقهم لذلك؟ والجواب: إن معنى ذلك مخالف إلى الذي ذهبت إليه، فمحمل القول: وما زال البشر في اختلاف بالباطل من أديانهم وملهم إلا من رَحِمَ رَبُّكَ، فلحق هداه، لعلمه، وعلى علمه النافذ فيهم قبل أن يخلقهم أنه يكون منهم الجاحد والمصدق، والأشقياء والسعداء خلقهم، فاللام بمعنى (على) في {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} مثل أن تقول: أحببتك على إحسانك بي، وأحبيتك لإحسانك بي².

يقول القرطبي، رحمه الله تعالى: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} للرحمة والاختلاف، وأحياناً تطلق "لذلك" إلى أمرين متضادين، كما في قوله تعالى: ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا بَكْرِ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 68] فلم يقل بين تينك ولا دينك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]، وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110]، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ بِضَلِّ أَلَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، وذكر القرطبي أن هذا أحسن الأقوال؛ لأنه يعم³.

واهتم رسول الله، ﷺ، في غرس مفاهيم الوحدة والألفة والاجتماع في المرحلة المكية، وربطها بالفوز العظيم، وهو الفوز بالجنة، ويمتد بروز موضوع الدعوة إلى الوحدة وبيان فضلها إلى المرحلة المدنية، فكذا في الآيات في السور المدنية عنيت أيما عناية في هذا الموضوع تأصيلاً وترسيخاً، ومن الجميل أن ندخل في الآيات

¹ هي الفرقة التي لا تثبت للعبد فعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً. ينظر: الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (المتوفى: 548 هـ): الملل والنحل، مؤسسة الحلبي - القاهرة، ط1، 1387هـ، (85/1).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (639-640).

³ ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (115/9).

المدنية من بوابة آل عمران، إذ يقول الله، عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣١﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٢﴾ [آل عمران 102-103]

واستمسكوا بشرع ربكم الذي وصاكم به، وميثاقه الذي واثقكم به إليكم في وحيه لكم من الائتلاف والوحدة على جمع الكلمة باحقاق الحق والاستسلام لأوامر الله... وحبل الله هو الجماعة ¹.

وقال الماتريدي، رحمه الله تعالى، مُسْنَدًا القول إلى ابن عباس، رضي الله عنهما: "الجماعة، وإنما هلكت الأمم الخالية بتفرقها"²، والله تعالى يأمر بأمرين في الآية الكريمة؛ الأول قوله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعًا، فيأمر الله تعالى بالألفة، والثاني أمر نهْي، حيث ينهى الله تعالى عن الفرقة؛ فإن الافتراق مهلك، والاجتماع منجاة، {وَلَا تَفَرَّقُوا}، أي بدينكم، مثل افتراق من تهوّد أوتنصر ملهم، ويحتمل ألا تختلفوا متبعين الأهواء بغير هدى من الله، والزموا شرع الله متحابين، فيمثل هذا مانعا لكم عن التنازع والجفاء، وشهد له الذي يليه، {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}، ولا حجة في الآية على حرمة الاختلاف في فروع المسائل؛ فما هذا بالاختلاف، لأن الاختلاف الحقيقي هو الذي لا يحصل معه الجمع والألفة، وفيما يتعلّق بمسائل الاجتهاد حكما، فحصول الاختلاف بها يعود الى استخراج دقيق معنى الشرع، ولا يزال الصحب الكرام يتباينون في الحكم على الأحداث الطارئة، ومع ذلك هم أهل إلف ووحدة واجتماع للكلمة، وإنما حرّم الله اختلافاً معيناً؛ لأنّه داعية الى الإفساد³.

¹ الطبري: جامع البيان، (643/5).

² الماتريدي: تأويلات أهل السنة، (444/2).

³ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (159/4).

وقال الشوكاني، رحمه الله تعالى: "قول الحبل هو السبب الذي يتوصل به إلى الغاية، حرّضهم، تعالى اسمه، بالاجتماع على الاستمسك بالدين أو بالتنزيل، وحذّره من التفرق الناتج عن الفرقة، ثم جاء الأمر بأن يتذكروا إنعام المولى لهم، وناسب ذكر خصوص نعمة الألفة بما يلائم الحال لأنّهم تعادوا من قبل يضرب بعضهم رقاب بعض، فباتوا لأجل خصوص النعمة المذكورة إخوة، وأوشكوا على الهوي في النار إذ كانوا على شفا حفرة منها على الكفران الذي عاشوه من قبل، فأنجاهم الله من النار بالإسلام"¹.

ويتبين فضل الوحدة، ورحمة الله للمؤمنين، عندما تبيضّ وجوههم، حينما نرى ما ذكره ابن كثير في تفسيره، لقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: 106-107] قال ابن كثير، رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعني يوم العرض على الله، حين تبيض وجوه الذين اتبعوا السنة وكانوا من أهل الألفة والاجتماع، وتسود وجوه أهل الابتداع والافتراق"².

ودونكم الأصل المتين: الاعتصام بحبل الله جميعاً، وانعدام الفرقة لهو من أعظم أصول الدين، ومما اسعظمت وصية الرب به في قرآنه، وذمه بالغ لمن خالفه من أهل الملل السابقة، ومما كبرت وصية الرسول به، ﷺ، في مواضع عامة وخاصة³.

والاعتصام الحق بحبل الله تعالى، وعدم الفرقة، يكون بجوامع كلم ما قاله ابن القيم، رحمه الله تعالى: فالاعتصام بالله ضربان: اعتصام اعتماد واستعانة ونوكٍ وتقويضٍ ولجوءٍ واستعيادة، وإستسلامٍ الى الله تعالى، والثاني: اعتصام بما أوحاه، فيكون بالتحاكم إليه بصرف أهواء الناس ومعقولاتهم ومقياسهم، وذوقياتهم

¹ الشوكاني: فتح القدير، (ص: 421).

² ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (79/2).

³ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحزاني (المتوفى: 728هـ): مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية، 1416هـ، (359/22).

ومكاشفاتهم ووجدتهم، فالمتخلّ مَنْ كان بخلاف ذلك؛ فالإسلام جميعه في الاعتصام بالله وبحبله، بالعلم والعمل، والإخلاص والاستعانة والمتابعة، والاستمرار على هذا إلى يوم لقاء الله تعالى¹.

وإنّ من لبنات الوحدة والألفة والاجتماع الأساسية التي لا تقوم الوحدة إلا إذا توفرت، هي الوحدة في الدائرة المقربة، ووُصِّل ما أمرنا الله به أن نوصله من قرابة نسب، أو قرابة عقيدة، ودين؛ فالأرحام والقرابات يدخل فيه وصل قرابة الرسول، ﷺ، وقرابة مؤمني الإسلام الثابتة لأجل إيمانهم، فإنما المؤمنون إخوة بأن يحسن المسلم لهم وفق الوسع، والانتصار لهم، والدفاع عنهم، وإفشاء السلام بينهم، وعيادة مريضهم، وأداء حق الصاحب، والخدام، والجيرة، ورفيق السفر والرحمة عليهم².

موضوع الوحدة له وزنه في دين الله تعالى؛ فهو ليس مقصوداً لذاته فحسب؛ فيثاب فاعله، والساعي إلى تحقيقه، إنما كذلك مقصود لغيره؛ فهو وسيلة لحفظ الغايات السامية العلية، إذ تراه يدخل أساساً في مقاصد الدين من حفظ قوام المسلمين، وتحقيق غاية وجودهم من عبادة، ثم الجزاء بالجنان، وتحصيل رحمة الرحمن الرحيم، وإلا فالجزاء يكون العذاب، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105].

وزاوية أخرى، في الحث على توحيد الأمة، أن الله جعل من صفات المؤمنين التي تفصلهم وتمايزهم من غيرهم، أنهم أولياء بعض، والنتيجة هي الرحمة التي نرجوها هي الولاء للمؤمنين، إذ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71]، بل إن الله تعالى

¹ ينظر: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية، (المتوفى: 751هـ): مدارج السالكين في منازل السائرين، تحقيق: سليمان بن عبد الله العمير، دار عطاءات العلم - الرياض، ط2، 1441هـ، (260/4).

² ينظر: النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (152/2).

قد قضى أن يكون المؤمنون إخوةً، وأهلاً، فسامهم بأهل الجنة، وسماهم إخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا﴾¹ بين أخويكم وأنفقوا الله لعلكم ترحمون ﴿[الحجرات: 10]﴾، وحتى في سياق شديد وأليم على النفس البشرية، مثاله أن يقتل من يقربك رحماً، نرى الله تعالى يخاطب جهة القاتل وجهة المقتول له بالأخوة، بعدما ناداهم بـ"يا أيها الذين آمنوا"، فهم مؤمنون إخوة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكَ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾² [البقرة: 178]؛ هذا لأن منة الله تعالى على الأمة بأخوتها وإيمانها عظيمة جداً، فعظيم الفضل على المؤمنين في اجتماع كلمتهم، ومؤالفة القلوب بينهم¹.

ولعل العلة من وراء كون أعظم منة على المسلمين هو أخوتهم؛ ذلك لأن الأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه؛ لأنه لن يكون بغيرهم، إن لم يكن بهم، وهم كانوا بغيره إن لم يكونوا به، وإنما يأكل الذنب من الغنم القاصية، والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾² [التوبة: 71]، ويلزم أن يكون الأمر على هذه الشاكلة، وهذا يحصل لما أن تتوثق القلوب والأرواح بوثاق العقيدة، والعقيدة أوثق العرى وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والفرقة أخت الكفر، وأساس القوة قوة الوحدة، ولا وحدة بغير تحابٍ، والحد الأدنى من الحب سلامة الصدر، وأعلاه الرقي إلى منزلة الإيثار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾³ [الحشر: 9].

¹ ينظر: الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (المتوفى: 388هـ): العزلة، المطبعة السلفية - القاهرة، ط2، 1399هـ، (ص:5).

² ينظر: حسن البنا، ابن أحمد عبد الرحمن محمد الساعاتي (المتوفى: 1949م): رسائل حسن البنا رسالة التعليم، أركان البيعة، الأخوة (ص:282).

المبحث الثاني: ذم الفرقة

لما كانت الأمور تعرف بأضدادها كان من تمام البيان إظهار ذم ما يقابل الوحدة؛ فكتاب ربنا مثنان، والمثنائي بأحد معانيها التي هي من صيغ الجمع، وواحدتها مثناة، وكل شيء يثنى يسمى المثناة؛ أي يكون اثنين، مثل أن يقال: ثنيت الشيء لما عطفته، أو ضمنت آخر إليه¹، فلا ريب إذاً، أن انعدام الوحدة وحصول الفرقة داعية الاختلاف، وبالتالي، النتيجة الحتمية التي لا نرجوها استحقاق العذاب، والعذاب، عياداً بالله، قد يكون بالفرقة نفسها ونتائجها غير المحمودة عاقبتها؛ فيقول تعالى محذراً الأمة من بلاء الفرقة، ومبيناً لهم أنها هي السبب المباشر في الهلاك: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ بِشِيْعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]، وفي المبحث توسعةً في موضوع ذم الفرقة؛ فيمثل الشق الآخر من هذا الفصل؛ فهو مبحث كامل بواقع أربعة مطالب، إن شاء الله تعالى.

ونجد في كتاب ربنا، جل وعلا، وفي سير الأنبياء، عليهم السلام، ذمًا واضحًا للفرقة، وهذا أدعى لاكتمال الصورة في الذهن للمقصد المرجو، وآيات الذم في القرآن الكريم أكثر عددًا من آيات الحث على الوحدة، ولا عجب في ذلك؛ لأن الأصل والأساس هي الوحدة والألفة والاجتماع، والطارئ العارض الشاذ الغريب المستتكر إنما هو الفرقة، لذلك، كان التحذير منها كثيرًا في آيات الله تعالى، وفي تحقيق هذا المقصد، وتنفير المسلم من الفرقة، أربعة مطالب مرتكزة على آيات القرآن الكريم.

¹ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (19/158).

المطلب الأول: الفرقة خزي في الدنيا، وندامة في الآخرة

إِنَّ أَهْلَ الْفِرْقَةِ يَسْتَحِقُّونَ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا
وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا
الَّذِينَ أُسْوِدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ
وُجُوهُهُمْ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٧) [آل عمران: 105-107]

روى الطبري، رحمه الله، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلَفُوا﴾، ومثل ذلك بالكتاب أمر
ربنا تبارك وتعالى، المؤمنين بالوحدة والاجتماع؛ وزجرهم عن الافتراق والاختلاف، وأعلمهم أنه قد ضلّ وهلك
الذين من قبل بالمرية والاختصام في الدين¹، فمن لطف الله تعالى بأمة الرسول محمد، ﷺ، أن بيّن لنا حال
الذين تفرقوا واختلفوا، وبيّن لنا سبب هذا الاختلاف، وحذّر من عاقبته التي ينفر منها المسلم النفور كله، وفي
ذلك يتم الإمام الطبري عليه شأبيب الرحمة: "المعنى في: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾، يا أهل الايمان {كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا} ممن
سبقكم من الكتابيين {وَأَخْتَلَفُوا} في الدين وفي أوامر الله ونواهيه {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، البراهين من
الرب جل وعلا، في الذي تنازعوا به، وأيقنوا أنّ الحق به، فقصّدوا مخالفته، بأن فارقوا أوامر الأمر، ونكثوا
العهود والمواثيق اجترأ على الحق، {وَأُولَئِكَ لَهُمْ}، وللمتفرقين في الدين، والمختلفين ممن سبق من الكتابيين
بعد ما تبين لهم الحق {عَذَابٌ} في الدنيا والآخرة {عَظِيمٌ}، فلا تختلفوا، يا أيها المسلمين، في الدين كما تفرّق
أولئك أهوائهم، وإياكم أن تفعلوا كما فعلوا، وتستنوا في أموركم بسننهم، فيحل عليكم العذاب من الرب متين
كما حلّ بهم².

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (92/7).

² ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وقد بيّن الإمام الرازي، رحمه الله تعالى، خطر الفرقة عند العزوف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يتم الأخير إلا في حال الوحدة، إذ يقول: وهو أنه جلّ في علاه لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مما لا يكون إلا فيما إذا حصل أنّ الأمر بالمعروف قادرٌ على القيام بهذه الكلفة في مقابل الظّلام والغالين، ولا تكون هذه المقدرة إلا في حال تحقق الإيلاف والتحابّ بين أصحاب الحق وأهل الدين، فلا غرابة في تحذير الله جلّ وعز من الاختلاف والافتراق؛ كي لا يكون هذا داعيةً لأن يتقلوا عن أداء هذا التكليف¹.

وفي بيان صفتهم سطر وصفهم من على نثرى قرطبة الإمام محمد بن أحمد القرطبي، فقال: فصاحب التحريف، أو الابتداع أو التبديل، في الدين، بما لم يؤذن له من قبل الله، فقد حقت عليه اللعنة فهو من المذايين عن الحوض المبعدين عنه أصحاب الوجوه المسوذة، وأبعدهم وأكثرهم نفياً، وإبتعاداً، الذي فارق جماعة المؤمنين، وباعد سبيلهم، كالخوارج على تنوّع طرُقها، والروافض على اختلاف غيّها، والمعتزلة علتباين أهوائهم؛ فهؤلاء جميعهم مبعدون ومطرودون، ومثلهم الظالمين أهل السرف في الظلم والبغي، وكنم الحقيقة، ومقاتلة أهل الحق وإراة ذلّهم، والذين لعنوا بالكبائر الذين يستخفون بالعصيان، وجماعة أهل الهوى وزيفان القلب، جميعهم يخشى عليهم أن يكونوا المعنيين بالآية².

المطلب الثاني: الفرقة ابتعاداً عن سبيل الله، وتفتيت للأمة

يفهم معنى الفرقة من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]، وكانت الآيات، قبل هذه الآية، تأمر الناس باتباع الصراط المستقيم والوفاء به؛ هو الطريق والدين الذي رضيه لعباده {مُسْتَقِيمًا}: قِيَمًا لا عوج فيه عن جادة الحق، فعليكم اتباعه والعمل به، وواتخذوه لأنفسكم منهجاً تسيرون عليه فالتزموه اتباعاً، ﴿وَلَا

¹ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (316/8).

² ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (168/4).

تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام: 153] ولا تسيروا في طرقٍ دونه، ولا تتخذوا نهجاً سواه، ولا تقصدوا ديناً بخلافه كمن تهوّد، أو تنصّر أو من يعبد الأصنام، ومثل هذا من النحل؛ فهي زيغ ومحدثات، {فَنَقَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} فتضل بكم إن اتبعتم السبل المبتدعة التي ليست عند الله بشرائع، ولا سبل، ولا محل رضى، فهذه كلّها تحيد بكم عن سبيله والإسلام الذي ارتضاه لكم وشرعه، وهو الدين الذي أوصى به الرسل ووصى به الناس من قبل، هذا ما أمركم به الله تعالى، {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}، لعلكم تتجون في نفوسكم فلا تردوها، وتحلوا سخط الرب عليكم، فينزل بكم انتقامه ووعيده¹.

وصراط الله تعالى المستقيم هو دين الإسلام، وطرق الضلالة هي السبل التي نُهينا عن أن نتبعها، وهذه الآيات آياتٌ محكماتٌ لم ينسخن شيءٌ من الكتب كلها، قال مقاتل بن سليمان: {صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} الدين القويم، {فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}، سبل الشر والزيغ والضلالة {فَنَقَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}، فيحيد بكم عن الإسلام، {ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} لكي تصيرزاً أتقياء، فهذه الآيات المحكمات لم تنسخ بشيءٍ من جميع الكتب، وهي آيات محكماتٌ على الناس جميعهم².

والأخذ بالوصية التي وصى الله تعالى بها تقي من الوقوع في السبل والضلالات، وتثبت على السبيل المراد للأمة، قال الواحدي: "وَأَنَّ هَذَا} وَأَنَّ بمعنى لأنّ هذا {صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا}، دين الحنفية أقوم دين {فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} كمن تهوّد، أو تنصّر، أو تمجّس، أو عبد الأصنام، {فَنَقَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} فتزيغ بكم عن الإسلام دين الحق {ذَلِكُمْ} ما تم ذكره {وَصَّيْكُمْ} أوجبه عليكم في القرآن {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} وتجتنبوا سبل الغي³.

والاتباع المأمور به المسلم إنما هو اتباع مقتضاه الحجة الواحدة، والمشكاة الواحدة، فكان صراطاً مستقيماً واحداً غير معوجّ، في مقابل مقتضى الأهواء المتعدّدة باختلاف الطبائع والعادات، فالتحذير من اتباع طرق

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (669/9).

² ينظر: مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل، (597/1).

³ ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ): التفسير البسيط، تحقيق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه عمادة البحث العلمي -جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1430هـ، (537/8).

الأديانات المنحرفة، أو سبل الهوى؛ فإن مقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات بينما ما يقتضيه البرهان واحدٌ، فالسبل تذهب بسالكها الى الزيغ والضلال عن سبيل الله الذي هو امتثال التنزيل، واقتفاء الحجة، فدونكم الاتباع الموصى به لعلكم تجتنبون الفرقة والتشتت عن الحق¹.

ولما كان أفضل ما بين القرآن هو أن يفسر بالقرآن، وأخذ الآيات بعضها في ضوء بعض يورد السمرقندي أن: وتقطعوا أمرهم بينهم: افترقوا في دينهم فمنهم من كان يهودا وآخرون تنصروا، كل إلينا راجعون يوم القيامة، فهذا وعيدٌ للذين اختلفوا فيما بينهم في دين الحق، ثم ذكر مثوبة الثابتون على الإسلام، فقال:، أي: طاعة الله وهو مؤمن، أي: مصدقا بالله وحده، جلّ وعلا، فلا كفران لسعيه، أي: لا ينسى ولا يجدد أجر ما عمل، والكفران مصدرٌ على وزن فعلان كغفران وشكران، وإنا له كاتبون، أي: مجازون حافظون².

ومن الملاحظ أن ابن كثير قد أتبع آيات الصراط التي في سورة الأنعام بآيات سورة الشورى، إذ يتبع رحمه الله: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} قول الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:13] مثل هذا في الكتاب، فيأمر الواحد الأحد المسلمين بلزوم جماعتهم، وينهاهم عن الفرقة

وأسابيها، وأعلمهم بأن الذي قد هلك من الأمم السابقة كان جزاء الاختصام والمراء بالدين³.

وهكذا يتبين أن اتباع السبل فرقة، واتباع صراط الله هو مراد الله تعالى، وهو النجاة والفلاح.

المطلب الثالث: براءة النبي محمد، ﷺ، من الذين فرقوا دينهم

إن من أعظم أمور العقيدة هي عقيدة الولاء والبراء، وفي هذا المبحث يبرئ الله تعالى النبي محمداً، من الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً، فصلوات الله عليه ليس منهم في شيء بأمر الله تعالى، إذ قال ربنا جل في علاه:

¹ ينظر: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1418هـ، (189/2).

² ينظر: السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: 373هـ): بحر العلوم، تاريخ النشر بالشاملة 1431هـ، (440/2).

³ ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (329/3).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159]

وقد قرأ حمزة والكسائي عن عليّ، رضي الله عنه: {فارقوا} بالألف، وقرأ الباقر عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: {فَرَّقُوا} بتشديد الراء، وعلى قراءة عليّ، رضي الله عنه، يكون المعنى: خرجوا فارتدوا عنه من المفارقة، بمعنى تولّوا عمّا أمرهم الله باتباعه، ودعاهم إليه وهو الدين الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، وعلى قراءة ابن مسعود؛ عامة قراء الكوفيين وقراء المدينة، والبصرة، ويكون المعنى حينها من التفريق مثل: فرقت القمح تفريقاً، والحجة عندهم في ذلك أن الله عزّ وجل قال بعد: {وَكَانُوا شِيعًا} بمعنى أصبحوا فرقاً وأحزاباً، ويصدقها: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} ففي هذا دلالة على أنهم باتوا فرقاً وأحزاباً، والمعنى الأول والثاني قريبان؛ لأنّ الذي فرق الدين فقد فارقه¹.

فابن مسعود تأول بقراءته بأنّ الدين واحد، وهو ملة إبراهيم الحنيفية وهو دينه الإسلام؛ فتفرق عن هذا اليهود وزاغ عنه النصارى؛ إذ اقتسموه فباتوا أحزاباً متفرقة، والحق في هذا وذاك: أنّ كلاً من القراءتين معروفة، أئمة من القراء قد أخذوا بهما، وهما منسجمتا المعنى غير متباينتين؛ فكل مفارق لدينه حتّى ضالّ عن سيل الحق، وفرق المتحزبون دين الله الذي رضي للمؤمنين؛ والتفريق بعينه أنّ بعد الحق قد تهود بعض، أو اتخذ النصرانية، أو المجوسية ديناً وملة، وومآل كل هؤلاء أنّهم أصبحوا شيعاً مفترقين غير موحدين؛ فكانوا للدين الحنيف الحق مفارقون، وله مفرقون، فبأيّ قرأ القارئ فهو مصيب للحق، وللعلم أنّ الطبري قد اختار القراءة التي عليها سواد القراء العظيم، وذلك تشديد الراء من {فَرَّقُوا} وقد ذكر الباحث ما اختاره الطبري في سياق كلامه لأنه يدل على أنّ علماء المسلمين موحدين للأمة غير مفترقين لها².

¹ ينظر: ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد أبو زرعة (المتوفى: 403هـ)، حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، ط1، النشر بالشاملة 1431هـ، (ص: 278).

² ينظر: الطبري، جامع البيان، (29/10).

وفي معنى براءة النبي، من الذين فارقوا دينهم وفرّقوه يؤصّل الواحدي المسألة، رحمه الله تعالى بحمله الآية على من تهوّد أو تنصّر، في حقيقة ما قال تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 159] بمعنى: إنك براءٌ منهم وهم بريئون منك، فلم تتلبس بشيءٍ من أهوائهم، والعرب قالت: إن تفعل هذا فلست منك ولست مني، بمعنى: أنّ كل طرف بريءٌ من نظيره¹.

وفي تعيين الذين فارقوا دينهم ذكر المفسرون أنهم الخوارج، أو هم أهل الأهواء والبدع، أو هم أهل سائر الملل من اليهود، والنصارى، والمجوس، ونحوهم، وهؤلاء: ليسوا من النبي في شيءٍ، وليس هو منهم في شيء².

وقد عزا الكيا الهراسي، رحمه الله، داعيةَ الفرقة الأساس إلى التعصّب والهوى، وجاء التحذير من الله تعالى من ذلك، ودعا، جلّ شأنه، إلى الاجتماع والوحدة، إذ يقول، رحمه الله تعالى: "إنما ذكر ذلك؛ لأن بعض هؤلاء يكفر بعضًا، من حيث لم يكن من السنة المأثورة عن رسول الله ﷺ، وحرفوا الكلم تعصّبًا واتباعًا للأهواء فحذر الله عز وجلّ من هذا، وأمر بالوحدة والألفة"³.

والآية شاملةٌ لصنفين من الناس؛ أولهما: الذين اقتسموا دين الله الواحد -دين إبراهيم، عليه السلام، الحنيفية- أديانًا مختلفةً؛ فتهودت أقوامٌ، وتنصرت آخرون، وهو ما دل عليه قول الله تعالى: {وَكَانُوا شِيعًا} بمعنى: أصبحوا شيعًا متفرقةً، والصنف الثاني من الناس هم أصحاب البدع والشبهات؛ فهم مشمولون في هذه الآية كذلك⁴.

¹ ينظر: الواحدي: الوسيط، (341/2).

² ينظر: السمرقندي: بحر العلوم، (498/1). وينظر: السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن احمد المروزي التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: 489هـ): تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض -السعودية، ط1، 1418هـ، (160/2).

³ الكيا الهراسي، علي بن محمد بن علي أبو الحسن الطبري الملقب بعماد الدين الشافعي (المتوفى: 504هـ): أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية -بيروت، ط2، 1405هـ، (129/3).

⁴ ينظر: البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، (208/3).

ويعرض الزمخشري صورةً لهول الموقف الذي سيكون فيه كانوا شيعاً، ومصيرهم، وما ينتظرهم، فيقول، رحمه الله، في سياق هل يحشر الناس جملةً واحدةً أم لا في جهنم: إذا جمع كل الخلق جمعاً واحداً، وفيهم الكفار مقتربين بالشياطين، فإن حشرهم مع الشياطين كما هو حشرهم مع الكفرة فهم جميعاً قرناء. فإذا سألت: لم لم يعزل أهل السعادة عن أهل الشقاء عند الحشر مثلما تزايلوا عنهم بالجزاء؟ أجبت: لم يفرّق بينهم في أرض الحشر، وحيء بهم حتى تجاثوا حول جهنم، وأوردوا وإياهم النار ليشهد السعداء الأهوال التي خلصهم الله ونجاهم منها، فيزدادوا بذلك سروراً إلى سرور، وسعادةً إلى سعادة، ويشمتوا بمن حارب الله وحاربهم، فتزداد حسرة أعداء الله ومساءتهم وما يغيظهم من نجا أولياء الرحمن وشماتتهم فيهم، فإذا سألت: ما معنى المجيء بهم جيئاً؟ كان الجواب: أما إذا بيّن الإنسان بالخصوص، فالمعنى أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ النار عتلاً بنفس هيئتهم التي كانوا عليها في الموقف، على ركبهم جثاء، ليسوا بمشاة على أرجلهم، وذلك أن أهل الموقف قد سبق وصفهم بالجثو؛ { على العادة المعهودة في مشاهد المناقلات والمقاولات، من تجاشى أهلها على الركب؛ لما في ذلك من الخوف والقلق وانعدام الطمأنة، أو للذي يدهمهم من هول الأمر الذي لا يستطيعون معه القيام على أقدامهم، فيحبون على الركب حبواً، وإذا فسّر بالعموم، فيكون حمل الكلام على أنهم يتجاثون عند موافاة حواف جهنم، على أن جيئاً حالٌ مقدرةٌ كما الحال التي كانوا عليها في الموقف متجاثين؛ لأنه من مستلزمات التوافق للعرض والحساب قبل الإفضاء إلى الجزاء والعقاب، والمراد بالشيعة -وهي «فعلة» كفرقة- الطائفة التي شاعت؛ بمعنى اتبعت غاويًا من الغاويين، نمتاز من كل فرقة من فرق الغي والفساد أعتاهم فأعتاهم، وأعصاهم فأعصاهم، حتى إذا جمعوا طرحناهم في جهنم على الترتيب، يقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم¹.

والذي يبدو أن الآيات عامة في كل الذي فرّق دين الله وكان مبايناً له، فإن الرب تعالى قد أرسل نبيه بالبينات والدين الحنيف؛ ليظهر على الدين كله، وأمره واحد من عند آدم، عليه السلام، إلى الرسول ﷺ، لا فرقة فيه

¹ ينظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (المتوفى: 538هـ): الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي -بيروت، ط3، 1407هـ، (34/3).

ولا اختلاف، فالذين اختلفوا فيه وأصبحوا شيعاً؛ أي أحزاباً، كأهل الهوى والضلال والملل والنحل، فإن الله عز وجل قد برأ نبيه، من الذي يخوضون فيه، وهذه الآية كقوله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِهُ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: 13]، فهذا هو الطريق القويم؛ وهو الذي نزل على الأنبياء في امتثال العبودية لله وحده لا شريك له، والاستمسك بشريعة النبي الآخر، وما كان بخلاف هذا فأراءً وأهواءً، وجهالات وضلالات، والرسل برآء منها، كما قال الله عز وجل لَأَسْتَخِفُّهُمْ فِي شَيْءٍ، وقوله عز وجل إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} مثل قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِي وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: 17]¹.

وفي موضع آخر يذكر ابن كثير الآية مع بيان الداء والدواء، فيقول، رحمه الله: "قول الله عز وجل: {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا} كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} بمعنى، إياكم أن تصيروا مشركين مثل من قد فرقوا دينهم؛ فغيروه وبدلوه، وصدقوا ببعضٍ وجحدوا ببعضٍ، ومثله قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَخِفُّهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 159]، فأهل الملل من قبل قد تفرقوا فيما بينهم على أهواءٍ وآراءٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وكل حزبٍ منهم يزعم أنه على شيءٍ، وهذه الأمة كذلك تفرقوا بينهم على مللٍ كلها ضالةٌ إلا واحدة؛ وهم أهل السنة والجماعة، المستمسكون بكتاب الله وسنة النبي وبالذي عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه"²

¹ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (3/339).

² المصدر نفسه، (6/285).

وكلام الرازي يقعد الأمور كلها التي تم ذكرها بخريطة ذهنية متينة؛ فكلامه جامعٌ، وفيه التقى التفسير بالمأثور مع التفسير بالمعقول بجودةٍ عالية الدقة، واقتضابٍ ملخصٍ، إذ يقول، رحمه الله تعالى:

الرأي الأول: المقصود سائر النحل: يقصد بهم المشركين فبعضهم اتخذوا الملائكة معبودات، وزعموا أنهم إناث لله وآخرون عبدوا الأصنام، وقالوا هم شفعاؤنا عند الله، فهذا معنى فرقوا دينهم، وكانوا شيعاً؛ بمعنى جماعاتٍ وفرقاً في الضلالة، كالذي تهوّد أو تنصّر، وكلُّ فرقةٍ منهم تكفر الأخرى.

الرأي الثاني: إن القصود في الآية أنهم آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: 150].

الرأي الثالث: إنّ من فرق الدين هم المعنيين من أهل أمة الإسلام فيكن القوم على أنهم أهل البدع والشبهات، واعلم أن الغاية من الآية الحضّ على أن تكون أمة المسلمين واحدة، وألا يختلفوا في الدين، وألا يحدثوا المحدثات والبدع، وقوله عز وجل: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فيه وجهان؛ أحدهما: أنت بريء منهم، وهم براء منك، وتفسيره: أنت بعيدٌ عن الذي يقولون ويعملون، وفي مأمنٍ من العذاب المستحق على ذلك الباطل لازم لأباطيلهم غير متعدّتهم، ثانيهما: لست من مقاتلتهم في شيء. فلم يؤمر بالقتال، وحينما نزل الأمر بقتالهم نسخ، إنما أمرهم إلى الله؛ بمعنى أنّه يمهّلهم وينظرهم ثمّ يستئصلهم ويهلكهم، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون، والمقصود الوعيد الذي كانوا يوعدون¹.

وقد دعا الإمام الشعراوي، رحمه الله تعالى، لأخذ العبر بعدما بيّن معنى الشرعة، التي هي القانون الذي يحكم حركة الحياة، والدين على أنّه التنزيل الثابت الواحد من لدنه تعالى اسمه، المحفوظ فلا يقدر واحدٌ أن يبدل منه ولو حرفاً واحداً، لهذا، كانت مشكلة من سبق بأن جعلوا من خلافتهم أحزاباً متفرقةً، وفرقاً متغايرةً، وهم المقصودون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي

¹ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (188/14).

شَيْءٌ ﴿١٥٦﴾ [الأنعام:159]، ولنتأمل {فَرَّقُوا دِينَهُمْ}، فلم يذكر: فرقوا مناهجهم ولا شريعاتهم؛ هذا لأن دين الله واحدٌ، أما الشرعة والمنهج، ففيها مساحة للاختلاف بحسب الأمراض التي تكون في الأقوام؛ فهؤلاء كانوا يطففون الكيل وينقصون الميزان، آخرون كانوا يعبدون الأصنام، وأولئك جحدوا آلاء الرب، وغير ذلك.

ومن الملاحظ أن تباين الداءات فيمن سبق من الأقوام سببه العزلة، فلا تدري أمةٌ بأمة، وهم في حقبة زمنية واحدة، بخلاف رسالة الإسلام؛ الرسالة الخاتمة الشاملة، فقد أتت على موعدٍ في لقاء الأمم، واتصال الحضارات، فالذي يحصل في أقصى الشرق يعلم به من في أقصى الغرب، فدائات أمة الاسلام متوحدة، وجاء نبيٌ واحدٌ خاتمٌ بشريعةٍ صالحةٍ للأزمنة جميعها، والأمكنة كلها، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها¹.

المطلب الرابع: الفرقة في الدين منافية لفطرة الله التي فطر الناس عليها

من المقرر في ديننا الحنيف أن كل ولدٍ تلده أمه يكون على الفطرة، فما علاقة الفطرة في موضوع الاجتماع والألفة، وذم الفرقة؟ في ذلك يروى البخاري ومسلم، رحمهما الله تعالى، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله، ﷺ: "ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟" ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30]².

وعند قراءة قول الله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

¹ ينظر: الشعراوي: تفسير الشعراوي-الخواطر، (16/100025).

² البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام (حديث 12921293). ومسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (المتوفى 261هـ): الجامع الصحيح -صحيح مسلم، دار الطباعة العامة -تركيا، ط1، 1334هـ، كتاب القدر باب: معنى كل مولودٍ يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (حديث 2658).

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ قَرَعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ

فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ [الروم: 30-32]

يَتَّبِعُونَ مِنَ {لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَقِيمُ} أن فطرة الله هي الإسلام¹، وقال الزجاج كلامًا يبين فيه محل الاجتماع، وماهية الفرقة بقرائنها في معنى الآية حائثًا فيه على الألفة والاجتماع، ويحذر من الفرقة، قال رحمه الله تعالى: "فرقوا دينهم وفارقوا دينهم، وكانوا شيعةً، أحزاباً، فأمر الرب تعالى، بالوحدة والائتلاف والتزام الجماعة، والسنة في الهداية، والضلالة هي الفرقة"².

ينهانا الله تعالى بأمره عن أن تكون أمة محمد، ﷺ، من المشركين، أو من الذين فارقوا دينهم، والنهي على ضربين؛ أحدهما: فارقوا دينهم الذي جاءتهم به الرسل، أو فارقوا دينهم الذي فطروا عليه، وهو ما جعل فيهم من شهادة التوحيد له والربوبية، وقوله تعالى: {وَكَانُوا شِيعًا}، يُحْتَمَلُ: صاروا شيعةً؛ أي: فرقاً وأحزاباً، بعدما كانوا على ما فطروا، أو على ما جاءتهم الرسل، أو كانوا شيعةً يشيع ويتبع بعضهم بعضاً؛ لأن الشيعة هم الذين يرجعون إلى أصل واحدٍ وأمرٍ واحدٍ، وقوله تعالى: {فَرَّقُوا دِينَهُمْ} أي: قطعوا دينهم، وجعلوه قطعاً وفاقاً وأدياناً، من نحو اليهودية، والمجوسية، والنصرانية، وغيرها.. {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} فكل أهل ضلالة بما عندهم من الذي تداينوا ثد رضوا به. ويمكن أن يكون قوله عز وجل: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} في الذي فطرتهم عليه، وهو ما جعل في خلقه لنا شهادة الوحدانية لله تعالى والدلالة³.

وفي المعنى الإشاري المقبول، ينتقل الإمام القشيري إلى معاني السلوك والتربية القلبية، فينحو في تفسيره هذا المنحى، فيقول، رحمه الله في الآية: {مِنَ الَّذِينَ قَرَعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}: أقاموا في حياتهم في خمار الغفلة، وعناد الجاهلة والفترة، فاطمأنوا إلى الظنون، واستوطنوا مراكب الأوهام، واعتاشوا

¹ ينظر: عبد الرزاق، أبو بكر بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: 211هـ): تفسير عبد الرزاق، تحقيق: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1419هـ، (16/3).

² الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، (185/4).

³ ينظر: الماتريدي: تأويلات أهل السنة، (273/8).

من جيب غيرهم، وحسبوا أنهم على شيء، فإذا انقشع ضباب زمانهم، وانكشفت سحب جحودهم، انقلب سرورهم حزنًا، وعلموا أنهم كانوا على غير الهدى، ولم يعرجوا إلا في دركات الجهل¹.

فمرضى القلوب هم حتمًا الذين سبق ذكرهم عند سائر المفسرين من أهل الضلالات والبدع والانحرافات، فيلتقي بعض التفاسير ببعض من زوايا النظر والمشارب المختلفة إلى المصب المشترك الذي يفضي إلى ذم الفرقة، والحث على الوحدة والاجتماع.

ومن المتأخرين من حمل هم وحدة الأمة وإرجاعها إلى ما كانت عليه في العهد الأول، وكتب في تفسير الإمام المراغي يقول في هذه الآية محررًا محل الخلاف المستساغ ونظيره غير المستساغ، فيقول رحمه الله: "ولما خرج متأخرًا، والأمة عن هدى سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا: {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ جِزٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} فسقط بعضهم في خيال التشبيه، وبعضهم في خيال التعطيل.

ولو أنهم قد نهجوا طريق الأولين لتجنبوا دواعي الفرقة والاختلاف في الدين الذي توعد الله أهله بالعذاب الأليم، وبرأ رسوله منهم، والواجب التزام كلام الله، وما بيّنته به سنة نبيه ﷺ، في امتثال العبادة، على النحو الذي أراده القرآن والسنة، من غير تخريج ولا تأويل لهما بما يوافق تحكيم للأهواء، أما التنوع فيما عدا هذا من شؤون السياسة والقضاء، وصلاح الدنيا من زراعة وتجارة، فهو شيء مستساغ لا غنى عنه، ولا بُد من حصوله؛ فمن دونه لما تقدمت أمور المعاش، ولما حصل التنافس المحمود بين أهل الحرف والصناعة، ولما جدَّ كلَّ يومٍ بدعٌ حديثٌ (موضه)، ولبات الناس أبدًا على الحضارة القديمة، وكيف لعقل الإنسان أن يبقى على حيثية واحدة، وقد استخلف في الأرض وأمر بأن يعمرها، والله في خلقه شؤون²

ومن المتأخرين كذلك من حمل هم الأمة، وكتب بالتفسير، وموضوع وحدة الأمة حاضر في تفسيره، وإرجاع الأمة إلى ما كانت عليه في العهد الأول، الشيخ السعدي، رحمه الله تعالى، إذ يقول: أورد الله تعالى مقبلاً

¹ ينظر: القشيري: لطائف الإشارات، (117/3).

² ينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: 1371هـ): تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، ط1، 1365هـ، (61/12).

حالة المشركين منكراً لها، قائلاً: {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ} مع أن دين الله واحد، وهو إفراد الله بالعبادة مخلصين له، وهؤلاء الكفار فرقوه؛ فبعضهم من يتخذ الأنداد والأوثان آلهة، وبعضهم من يسجد للشمس والقمر، ومنهم من تهود أو تنصر.

ولذلك قال تعالى: {وَكَانُوا شِيْعًا} بمعنى: كل حزبٍ من أحزاب الشرك وتعصبت على الانتصار لما ارتضته من الباطل وتألقت على منازعة من دونهم ومحاربتهم.

{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ} من الضلالات الميانية لهدى الأنبياء {فَرِحُونَ} به، يقضون لأتباعهم بأنه الحق، وأن غيرهم هو البطلان، وفي ذلك تحذير للمؤمنين من التنازع وتشتتهم أحزاباً؛ كل فرقة تتعصب للذي بين يديها من حقٍ وباطلٍ، فيصIRONون متشابهين في هذا للكفار في التشتت، لكن دين الله واحد، والإله أحدٌ واحدٌ، والنبي واحدٌ.

والغالب الأعم من مسائل الدين التي عُقد فيها الإجماع بين الأئمة والعلماء، قد ربطها المولى جلّ وعلا وعقدها أحسن عقد، فما بال هذا يلتغى وينبني الافتراق والتشتت بين أهل الإسلام في أمورٍ مخفية أو تفرعاتٍ هي أصلاً محل خلافٍ يتمايزون مضللين بها أبناء الإسلام بعضهم بعضاً؟

فما هذا إلا من أعظم مكائد الشيطان، التي كاد بها أهل الملة الواحدة لكي يفرق شمل وختهم، وإنّ السير في وحدة الكلمة، وحلّ ما بين المسلمين من الخلاف المبني على ذلك الأصل الباطل لمن أفضل الجهاد في سبيل الله، وأزكى القربات الموصلة إلى رضى الله تعالى¹.

هذا والله تعالى أعلى، وأعلم.

¹ ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص: 640).

الفصل الثالث

دعوة الأنبياء عليهم السلام أقوامهم إلى عقيدة واحدة

المبحث الأول: وحدة الدين، ووحدة الخالق وحاكميته، في دعوة الأنبياء عليهم السلام،

أقوامهم

لما كانت دعوة الأنبياء إلى الوحدة من أعظم الموضوعات وأفخمها التي أتى بها أنبياء الله تعالى كانت هناك مسلمات واضحة غاية في الوضوح دعا إليها أنبياء الله تعالى، حيث إن أهمها كان أصل الدين الذي تتفرع منه سائر أموره، وتنبى عليها فروعه كافة، فكان أساس دعوة الأنبياء هو الدعوة إلى وحدة العقيدة.

المطلب الأول: وحدة الدين في دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم

إن وحدة المعتقد هو أصل دين الله، عز وجل؛ فهو مقصود دعوة الأنبياء، عليهم السلام، وأول ما دعا إليه الأنبياء والمرسلون من أول الرسل، عليهم السلام، إلى آخرهم ﷺ، الاعتقاد بالله، جل في علاه، وهو الأصل الذي تمحورت حوله دعوتهم، عليهم السلام، أقوامهم، وعليه، كان الولاء والبراء، وإن أول ما كان من العقيدة هو توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وحمل الأقسام على سائر أركان الإيمان.

إن الدين الذي ارتضاه الله تعالى؛ وهو الإسلام له تعالى وإفراده بالعبادة، هو الذي بُعث به الأنبياء جميعاً، وفي القرآن الكريم ما يشهد لهذا المعنى بالأمر الصريح في كثير من الآيات الكريمات، وسرّها يطفى طمأنينة في النفس لكثرتها، وكونها مباشرة صريحة؛ فمنها قول الله تعالى:

1. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُخِيبُ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 112]

يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ [البقرة: 112]

2. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]

3. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85]

4. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]

5. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: 125]

6. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: 25]

7. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ

الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: 30]

8. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: 7]

وعليه، فإن الله تعالى لا يرضى للأمة بأن تختلف في التوحيد والإيمان به تعالى، وطاعة رسله، عليهم السلام، وامتثال شريعته، فإن هذه الأصول محل اتفاق بين الشرائع، فلا يجوز الاختلاف فيها¹؛ فهو سبحانه وتعالى يقول لهذه الأمة إنه قد ارتضى لهم من الدين ما أوصى به نوحًا، أول الرسل، وهو الذي أنزل إلى خاتمهم، محمد، ﷺ، فذكر أول الرسل بعد آدم، عليه السلام، وهو نوح، عليه الصلاة والسلام، كما ذكر الخاتم، وهو محمد، ﷺ، ثم ذكر من بينهما، وهم أولو العزم من الرسل؛ إبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم، عليهم السلام، وهذه الآية جاءت بذكرهم، مثل قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: 7]. والدين الذي أنزل على الرسل كلهم إنما هو عبادة

¹ ينظر: الشوكاني: فتح القدير، (530/4).

الله وحده والإسلام له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]¹.

وفي الحديث الشريف: "أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ"²، أي أن الأمر الذي يشتركون فيه فيما بينهم هو إفراد الله تعالى وحده لا شريك له بالعبادة الخالصة، وإن اختلفت شريعة أحدهم أو منهجه، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾؛ أي أمر الله تعالى الرسل، عليهم الصلاة والسلام، جميعًا بالألفة والاجتماع، وحذرهم من الفرقة والتنازع³؛ فالأصل في الإيمان واحد وإن اختلفت شرائعهم، فهم مجتمون في أصول التوحيد، وأما فروع المناهج فوقع فيها الذي لا يضر من الاختلاف؛ فوحدة الأنبياء في أصول التوحيد، وأساس امتثال أمر الله، وإن تباينت صفتها، وأصول التوحيد والطاعة، كلها متحدة⁴.

يقول ابن عطية: "وَأَمَّا فِي الْمَعْتَقَدَاتِ، فَالِدِينِ وَاحِدٌ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ؛ تَوْحِيدٌ، وَإِيمَانٌ بِالرَّسْلِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْبَعْثِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ اخْتَلَفَتْ شَرِيعَتُهُمْ عَنْ بَعْضِهِمُ الْبَعْضُ، ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى لَخَاتَمَ الرَّسْلَ ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: 90]، وهذا عند أهل العلم في العقيدة فقط"⁵.

¹ ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (178/7).

² أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: "واذكر في الكتاب مريم"، حديث رقم (3442)، (167/4) وطرفه في: (3443). وأخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، حديث رقم: (143) (1837/4).

³ ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (178/7).

⁴ ينظر: النووي، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط2، 1392هـ، (120/15).

⁵ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ): المحرر الوجيز شرح الكتاب العزيز، ت: عبد السلام الشافعي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت، ط1، 1422هـ، (628/7).

فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية؛ كالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر، فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً، وبين الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين؛ فالأنبياء إنما بعثوا لدعوة أقوامهم إلى إفراذ الله بالعبادة وحده، وقد يذكرون المعاد مجملاً ومفصلاً، والقصاص قد يذكر بعضهم بعضها مجملاً، وأما الإلهيات فهي الأصل، ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده من دون ما سواه، فلا بد لكل نبي من بيان الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح¹.

وفي بيان معنى الإسلام العام يقول الإمام ابن رجب: "ومعنى ذلك: أن دين الأنبياء كلهم دين واحد؛ وهو الإسلام العام، المشتمل على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وعلى توحيد الله، وإخلاص الدين له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ [البينة: 4-5]².

فدين الله تعالى في الأرض والسماء واحد؛ ألا هو دين الإسلام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۝﴾ [آل عمران: 19] وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۝﴾ [المائدة: 3]³.

يقول الإمام ابن القيم: "﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۝﴾ [آل عمران: 19]؛ يعني: الذي جاء به محمد، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، ليس لله دين سواه... وقد دل قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ على

¹ ينظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى، (159/15) و (125، 44/17).

² ابن رجب، زيد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى: 795هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، مجدي بن عبد الخالق الشافعي، إبراهيم بن إسماعيل القاضي، السيد عزت المرسي، محمد بن عوض المنقوش، صلاح بن سالم المصراطي، علاء بن مصطفى بن همام، صبري بن عبد الخالق الشافعي، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية، ط1، 1417هـ، (17/1).

³ ينظر: الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الحنفي (المتوفى: 321هـ): العقيدة الطحاوية، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط2، 1414هـ، (ص: 86).

أنه دين جميع أنبيائه ورسله، وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه؛ فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه؛ فأديان أهل الأرض ستة؛ واحد للرحمن وخمسة للشيطان، فدين الرحمن هو الإسلام، والتي للشيطان اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين، فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية الكريمة من حقائق التوحيد والمعارف¹.

ويقول الطبري: "الدين الواحد الذي لا يتقبل الله سواه، التوحيد والإخلاص لله الأحد وهو ما أنزل على الأنبياء"².

المطلب الثاني: الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة

إن التوحيد هو دين العالم؛ أوله وآخره، سماواته وأرضه، وسابقه ولحقه، وبالجملة، فكتب الله، عز وجل، بأسرها، ورسله جميعًا متفقون على توحيد الله تعالى والدعوة إليه، ونفي الشرك بجميع أقسامه وأشكاله، والشرائع كلها اتفقت على إثبات التوحيد على كثرة عدد الرسل المرسلين، وكثرة كتب الله، عز وجل، المنزلة على أنبيائه³.

إن هذا الفهم المراد لأمة الإسلام، والذي دعا إليه رسل الله عز وجل، إنما هو إقامة الدين الذي أمر به هؤلاء الأنبياء جميعًا، وهو من جملة توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له؛ فدين الله واحد لا اختلاف فيه، والصمد المعبود يناسب اجتماعه؛ فالله سبحانه وتعالى هو الإله الواحد، ودينه واحد، وعباده المؤمنون مجتمعون يعتصمون بحبله غير متشتتين، واسمه الأحد يقتضي التوحيد، كما أن اسم الصمد مقتضاه الاجتماع

¹ ابن القيم: مدارج السالكين، (4/489-490).

² الطبري: جامع البيان، (8/493).

³ ينظر: الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: 1250هـ): إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوت، دار الكتب العلمية - لبنان، ط1، 1404هـ، (ص:5).

وعدم الفرقة؛ فإن الصمد فيه معنى الاجتماع وانعدم التفرق، والتوحيد مقوون بالاجتماع أبداً؛ لأن الوحدة في الاجتماع، والافتراق يكون لازماً فيه التنشئة والتعدد، كما أن الإشراك مقرون بالترقة¹.

فتوحيد الله تعالى بالعبادة يوحد السائر في هذا المسار؛ ذلك أن الطريق واحد إلى المولى عز وجل، فإنه الصراط المستقيم، وسبيل الحق المبين، والحق واحد بأن يرجع إلى الفرد الصمد الواحد الأحد، وأما الباطل والضلال فطرقة شتى لا ينحصر، وأصحابه مختلفون وفقاً لاختلاف أهوائهم وأهدافهم، فكل ما سوى الباطل باطل، وكل طريق إلى الباطل باطل؛ فالباطل متعدد وطرقه متعددة، وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطرق إلى الله متعددة متنوعة، فهذا يرجع لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمة من الله فضلاً، ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد، ومعبود واحد².

إن من المسلّمات في ديننا الحنيف، ومما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن الله تعالى أرسل رسله جميعاً بالدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده، جلّ وعلا، بالعبادة على النحو الذي شرعه الله من دون غيره، وفي ذلك يصرح ابن تيمية: أن من لم يقر في باطنه، وظاهره، بأن الله لا يقبل ديناً سوى الإسلام فإنه ليس بمسلم³، فاقتضت الغاية من خلق الجن والإنس هو أن يعبدوا الله، جلّ في علاه، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وإن من العلوم الأساسية الواجب على كل مسلم أن يعلمها أن الله عز وجل، يقبل العمل إذا توفّر فيه أمران أساسيان، فحسب، هما: الإخلاص، والصواب، أي أن الله تعالى لا يقبل من العباد صرفاً ولا عدلاً بغير الإخلاص الذي هو الشرط الأول أي إفراده، سبحانه وتعالى، بالعبادة، وفي دعوة الأنبياء، عليهم السلام، دعوة لتوحيد الله؛ لأنه المقصود الأول والأساس من دعوتهم لأقوامهم.

¹ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ، (4/224).

² ينظر: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: محمد أجمل، دار عطاءات العلم - الرياض، ط4، 1440هـ، (385/1).

³ ينظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى، (463/27).

(نقل جزء، ولا الفقرة كلها) ولما كان نوح أول الرسل إلى أهل الأرض دعا بهذه الدعوة ابتداءً، فقال الله تعالى عنه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِلَيَّ أَنَا خَافٌ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ [الأعراف: 59]، وأراد، عليه السلام، أن يبلغ بقومه مقام التقوى حرصاً على هدايتهم، فقال الله تعالى فيه عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾ [المؤمنون: 23] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ أَنْ عِبَادُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣﴾ [نوح: 1-3]، ونهَج النَّهَج نفسه شعيب، عليه السلام، إذ أنزل، وكان، عليه السلام، حريصاً أشد الحرص على صلاح دنيا قومه وآخرتهم، وإيجابياً في طرحه، إذ يقول الله تعالى إخباراً عنه ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ٨٥﴾ [الأعراف: 85]، ونحى، عليه السلام، منحى في تأصيل سائر أركان الإيمان حتى وعظ قومه بالإيمان باليوم الآخر مردفاً إياه بعد الإيمان بالله الواحد وإقامة العبادة له، ومن ثم عدم الإفساد في الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾ [العنكبوت: 36]، وهي نفسها دعوة أبي الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، إذ قال تعالى عنه، وهو يعظم من شأن التوحيد، ويحط من قدر الأوثان، مبيّناً المال لقومه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ عِبَادُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: 16-17]، وهذه محورية قول المسيح، عليه السلام، كذلك، إذ قال الله تعالى عنه في دعوته لبني إسرائيل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ

قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَدْعُنِي إِبْرَاهِيمُ لَأُعْبُدَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: 72].

ويبين عيسى، عليه السلام، أنه التزم بدعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، كما أمر من رب العالمين، وكان هذا البيان حينما يسأله تعالى عن ماهية ما دعا إليه، فيقول، عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ

أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 117]

وما كان حبيب رب العالمين، وشفيع المحسنين والمقصرين من الموحدين سيدنا محمد، بدعاً من الرسل؛ فقد ارتكزت دعوته، ﷺ، مذ فجرها إلى يومنا هذا على إذكاء معنى التوحيد في أمة الإسلام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَكَابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: 36]، وتتوالى الأوامر الربانية بإفراد الله بالعبادة، الأوامر التي يتلقاها القلب النبوي الطاهر المطهر بالطاعة التامة، فيقول الله تعالى مُعَلِّيًا شَأْنَ نَبِيِّهِ، وأُمْتَهُ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْيَكُمُ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [النمل: 91-93]

ويقول تعالى في تربيته لرسوله ﷺ ولأُمْتِهِ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُوا لَهُ دِينِيَ ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: 11-14]، وفي النفي والإثبات كمالاً وأيما كمال، لما كان النفي نفي الشرك، والإثبات إثباتاً للواحد الأحد عبادة وإخلاصاً، فيقول تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ *

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ [غافر: 65-66]

ومن التفاصيل التي تلخص ما أُمر أن يؤمن به الرسول، ﷺ، والمؤمنون، الآيات التي أنزلت من تحت العرش حيث لم تنزل على نبي قبل، وفيها امتنانٌ عظيمٌ جليلٌ من الله تعالى، إذ يقول جل شأنه: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٩﴾﴾ [البقرة: 285]

إذًا، فالدعوة لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد هي أساس دعوة الرسل جميعاً أممهم بنص القرآن الكريم صراحةً، ويتجلى هذا في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، فالآية عامةٌ جليةٌ واضحةٌ تلخص جوهر مهمة إرسال الرسل؛ وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وعبادته من دون شريك، واجتناب الطاغوت.

المطلب الثالث: دعوة الأنبياء عليهم السلام لحاكمية الله وحده

إن صاحب العقيدة الشمولية يعتقد بأن الحاكمية إنما تكون للرب الخالق المالك، وأن التشريع ليس إلا للاله المالك الرزاق، ولن يستطيع أحدٌ كائناً من كان، مهما أوتي من براعة، أو علم، أن يأتي بشرعٍ يضاهي به شرع الله، ولو من وجهٍ من الوجوه، ولا بحكمٍ يُحاكي حكم الله، سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]، وإنما جاءت الرسل بوحدة الاعتقاد بأن الحاكمية لله وحده، للإقامة بالعدل، فسوى الله في الحكم بين عبادِهِ؛ الشريف منهم والوضيع¹.

¹ ينظر: الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ): تفسير الإمام الشافعي، تحقيق: د. أحمد بن مصطفى الفرّان، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ، (762/2).

يقول سيد قطب: وفي النهاية، يؤول السياق إلى الرسالة الخاتمة، وإلى الشريعة الآخرة، إنها الرسالة التي أتت لتبرز "الإسلام" في الهيئة الأخيرة النهائية؛ ليكون دين المكلفين كلهم، ولتكون شريعته هي منهج البشرية جمعاء؛ وليهيمن الدين على كل ما جاء قبله، ويكون هو المرجع الأول والأخير؛ وليقام منهج الله في الحياة الدنيا حتى تقوم الساعة، والأمر موجّه، في أوله، إلى النبي ﷺ، للذي كان فيه من حال أهل الكتاب الذين يجيئون إليه ليتحاكموا، إلا أنه ليس خاصاً بهذا السبب، بل هو عام، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، طالما أنه ليس هناك نبي من بعد، ولا رسالة بعد رسالة الإسلام، لتعدل شيئاً ما في هذا المرجع الآخر¹.

فلقد أكتمل الدين بمنية الله تعالى، وتمت النعمة به على أهل الإسلام، وارتضاه الرب لهم منهج حياة وأنزله لجميع الناس، وانقطعت كل سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، أو لتترك شيء من حكمه والاحتكام إلى غيره، ولا أي أمر من شريعته إلى أخرى، وقد سبق بعلم الله لما ارتضاه للناس ديناً، أنه يسعهم جميعاً، وعلم الله حين ارتضاه مرجعاً نهائياً أنه مصدر لتحقيق الخير للخلق جميعاً إلى يوم القيامة، وأي تبديل في هذه المنهجية، برؤية أنه يجيء بأفضل منه، ناهيك عن العدول عنه، إنما يكون إنكاراً لهذا المعلوم من الدين بالضرورة، فيخرج صاحبه من رتبة الدين، وإن أقرّ بلسانه إنه مسلم، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء: 105]، وكذلك يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: 115]، وكذلك لم يستثن أحد من الأمم الغابرة، ولا من أمة الإسلام؛ فالجميع ملزم بتحكيم ما أنزل الله تعالى، فلا يمكن تصور الحاكمية لغير الخالق المالك عز وجل.

¹ ينظر: سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي (المتوفى: 1386 هـ): في ظلال القرآن، دار الشروق - مصر، ط2، 1398 هـ، (1/116).

قال سفيان الثوري في الآيات الثلاثة الآتية من سورة المائدة: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ أُولَاهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وثانيها في اليهود، وثالثها في النصارى¹، وهي قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]

ومما حذر الله تعالى به أنبياءه، والأمة من بعدهم، ألا يتبعوا الهوى، وأن يأخذوا الحذر بأن يفتتنوا عن بعض ما أنزل الله، وفي ذلك يقول تعالى شأنه: ﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49].

وكذا عند النزاعات تميل النفوس إلى لِيّ الحق تجاهها؛ فما يُؤمّر به المسلم أن يحق الحق، ولو على نفسه، وأن يرد المتنازع فيه إلى حكم الله تعالى والرسول صلى، الله عليه وسلم، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]

فينبغي معرفة ما بعث الله به رسوله، وأنزل به كتبه؛ فإن الله، سبحانه، أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه، والله، سبحانه، أعلم وأحكم وأعدل من أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه

¹ ينظر: سفيان الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الكوفي (المتوفى: 161هـ): تفسير سفيان الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ. 1983م، (ص: 102).

بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالةً وأبين أمانة، فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق، أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط¹. إن الحاكمية لا تجوز أن تكون لغير الله تعالى؛ فالإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة، سواءً بسواء.

ولا يتحصّل كمال الإيمان عند العبد إلا إذا رضي بحكم الله تعالى ولم يجد في صدره حرجاً مما قضى الله تعالى، وقضى رسوله الكريم، وكان هواه طوعاً لما جاء به الشرع، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، لقد بين الله تعالى أن التوقف عن الالتزام بحكم النبي، ﷺ، فيما وقع بين الناس من المشاجرة هو مخرج عن الإيمان، وإنما يكون حدوث الإيمان الحقيقي بعد أن ينشرح الصدر لجميع ما يحكم به الرسول الأمين، عليه السلام، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي يسلمون ظواهرهم وبواطنهم، والتسليم هنا هو الإسلام المأمور في قوله: ﴿تَقْوُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]².

¹ ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، دار عطاءات العلم - الرياض، ط4، 1440هـ، (31/1).

² ينظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ): تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، دار الوطن - الرياض، ط1، 1424هـ، (1302/3).

إِذَا، فالإيمان موقوفٌ على التسليم لحكم الله المتمثل بالانقياد سرّاً وعلانيةً بغير أدنى شكٍّ، أو حرجٍ، أو ريبَةٍ، بالاحتكام للنبي ﷺ، بل ينبغي أن ينشرح الصدر لحكمه ﷺ، وإن كان خلاف الهوى المذموم¹.

وهكذا، اشترك محمد ﷺ، مع سائر الأنبياء في وجوب طاعتهم، والنزول عند حكمهم، عليهم السلام، ولكنه امتاز منهم بأمرين؛ أحدهما: أن رسالته كانت عامةً وشاملةً، فقد أرسله الله للعالمين، فقال، عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، والآخر: اتساع حدود الرسالة في الأرض

حتى شملت العالم كله، وثم اتساع آخر في البعد الزمني، فكانت رسالته خاتمة الرسالات².

¹ ينظر: الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: 864هـ) وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: 911هـ): تفسير الجلالين، دار الحديث - القاهرة، ط1، (ص: 112).

وينظر: البيضاوي: أنوار التنزيل، (81/2).

² ينظر: مالك بن أنس، أبو عبد الله بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني (المتوفى: 179هـ): الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبوظبي - الإمارات، ط1، 1425هـ، (8/1).

المبحث الثاني: الإيمان برسل الله جميعاً، وبالיום الآخر في دعوة الأنبياء عليهم السلام أقوامهم

المطلب الأول: الإيمان بوحدة الرسل، ووجوب طاعتهم، والتحذير من عصيانهم

لقد أولى الله، عز وجل، حاجة المكلفين إلى بعثة الرسل والإيمان بهم أهمية بالغة؛ إذ الإنسان عاجز عن إدراك كامل الحقائق، وأصول الإيمان، ومقصد الخلق، وأحكام الشرائع، ومعرفة عالم الغيب، من دون هداية إلهية، ووحى سماوي، فضلاً عن الافتقار البشري الدائم لتزكية النفس ومجاهدتها التي وضع أصولها، وأسس وجودها، أنبياء الله تعالى، وفي ذلك قال تعالى عن سيدنا إبراهيم، عليه السلام، لما دعا ربه، سبحانه، وهو يرفع القواعد من البيت، وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]

ولما كان الأمر كذلك، بات الإيمان بالرسل أصلاً من أصول الدين التي دعا إليها القرآن الكريم وأكدت السنة النبوية المطهرة؛ فقد أمر الله تعالى عباده بالإيمان به، وبرسله جميعاً، إذ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179]، فركن الإيمان بالرسل هو مَفْصَلٌ في الإيمان، وبه ممايزة للخبيث المنافق الكافر من الطيب المؤمن.

والله تعالى، بسابق حكمت، وبعمله الأزلي القديم، استخلص ثلة المرسلين من الخلق، واجتباهم، حتى ينقي الصف المؤمنين، ويذر الكافر ليركمه في جهنم¹، وأوجب الله تعالى لمن أرسل إليهم الرسل أن يصدقوا بتوحيد الله تعالى، وبرسالة النبي الذي أرسل إليهم، وأن يتقوا الشرك، فإن فعلوا فلهم الأجر العظيم، والجزاء العميم².

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (224/6). وينظر: ابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، (824/3).

² ينظر: مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، (318-317/1).

ويشير القرآن إلى أن اتباع الرسل، ولزوم منهجهم، وطاعة أمرهم، هو غاية، ومطلب من غايات التكليف الديني، وهدف من أهداف الوحي الإلهي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: 64] والمعنى: لم نرسل، يا محمد، رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه، فأنت، يا محمد، من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلتك إليهم، وهذا توبيخ من الله للمحتكمين من المنافقين الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي، عليه السلام، فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت، صدوداً عن رسول الله ﷺ؛ فمن ترك طاعة محمد ﷺ، والرضا بحكمه، واحتكم إلى الطاغوت، فقد خالف أمر الله، وضيع فرضه¹.

فطاعة الرسل، وتعزيزهم، وتوقيرهم، هي قوام الدين كله، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: "فقيام مدحه، وثناؤه، وتعظيمه وتوقيره ﷺ، قيام للدين كله، وذهاب ذلك ذهاب للدين كله"².

وذلك أن طاعة الرسل مفضية إلى الجنان ورحمة المنان، وأما من تنكر لدعوة الرسل، مقابل دعوتهم للإيمان بالكذب، وللطاعة بالعصيان، وللاستجابة بالنكران، فمآله إلى هلاك في الدنيا، والبوار والحسرة في الآخرة، وفي هؤلاء قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 44]

وإن تكذيب الرسل محل استحقاق للعقاب، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ كُلَّ كَذَّبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 12-14]، وهذا العقاب إنما هو وعيد الله تعالى على لسان الرسل الذين أرسلهم الله تعالى،

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (515/8).

² ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي - السعودية، ط1، 1431هـ، (نشر بالشاملة)، (ص: 211).

إذ قال، جل في علاه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [لق: 12-14]

فكل من وعظ الله بحالهم ومآلهم بعد النكران والتكذيب من هؤلاء الأقوام الذين كذبوا رسلهم، فحق عقاب، أي فوجب عليه عقاب الله المرصود لهم، وفي إسناد التكذيب بالرسول جميعاً إليهم في مقام واحدٍ إشارةً إلى أمرين؛ الأول: أن الرسل جميعاً على أمرٍ واحدٍ، وعلى دعوةٍ واحدةٍ، هي الإيمان بالله؛ فمن كذب برسولٍ من رسل الله فهو مكذب برسول الله كلهم؛ لأن الحق الذي معهم واحد، والدين الذي يدعون إليه دينٌ واحد. والثاني: أن أهل الضلال حالهم واحدٌ أيضاً، لا اختلاف بين أولهم وآخرهم؛ فالطريق الذي سار عليه أولهم، من الكفر بالله والتكذيب برسوله، هو الطريق نفسه الذي سلكه وسار عليه كل مشركٍ ضال¹.

إن العذاب الذي يلحق بمن كذب بالرسول قد يكون مادياً؛ بإرسال الريح، أو الخسف، أو الإغراق، وقد يكون نفسياً، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴿١٤﴾﴾ [النساء: 42]، فيتمنى الكافر لو الأرض تسوى بالرجال عليهم، كما قال ابن عباس رحمه الله²، أو على قول قتادة، رحمه الله تعالى: بأن ودوا لو خرقت بهم الأرض، فساخوا فيها³.

وفي عموم الآيات، ما يبرهن على ماهية دعوة الرسل، ووجوب الإيمان بهم، وفي ذلك آياتٌ كثيرةٌ ماثلةٌ في كتاب الله تعالى، وكذلك في خصوص ذكر الرسل مع أقوامهم، أما العموم فقد سبق من الآيات ما هو كافيٌ بأن يؤدي المعنى المراد، ومن الخصوص قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: 105-110]

¹ ينظر: عبد الكريم، ابن يونس الخطيب (المتوفى: 1390هـ): التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي - القاهرة، 1431هـ، (تاريخ النشر بالشاملة)، (1057/12).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (44/7). وينظر: ابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، (957/3).

³ ابن المنذر، تفسير ابن المنذر، (713/2).

وكما نهج نوح، عليه السلام، كان كذلك نهج هود إذ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْنَا بِأَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الشعراء: 141-151]، ولوط، عليه السلام، تحدث القرآن عنه كما تحدث عن سبقه من إخوانه من الرسل، وأخبر أنه رسول من رب العالمين أمين لهم، فقال تعالى عنه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء: 160-164]

وكذا شعيب، عليه السلام، إذ قال تعالى في إنذاره قومه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء: 176-180]

وعليه، فدعوة الرسل واحدة غايتها واضحة، ومن أنكرهم وجحدهم، فقد جحد ما جاءوا به من رب العالمين، فاستحق أن يكون من أهل النار والعياذ بالله؛ لأن من خصائص الأنبياء أنه يجب الإيمان بكل ما يقولونه، فيجب تصديقهم في كل ما يخبرون به من الغيب، وطاعتهم فيما أوجبوه على أممهم، ومن كفر بشيء مما جاءوا به فهو كافر، ومن سب نبياً واحداً وجب قتله، وليس هذا لغير الأنبياء من الصالحين والأولياء¹.

¹ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): الجواب الصحيح على من بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة - السعودية، ط2، 1419هـ، (188/3).

والمقصود إنما هو تعظيم الرسل بتصدقهم فيما أخبروا به عن الله، وطاعتهم فيما أمروا به، ومتابعتهم ومحبتهم وموالاتهم ونصرتهم، لا التكذيب بما أرسلوا به والإشراك بهم والغلو فيهم، بل هذا كفرٌ بهم، وطعنٌ فيهم ومعاداةٌ لهم، ومآل ذلك وخيم¹.

المطلب الثاني: الإيمان باليوم الآخر، واستخدام أسلوب الوعد والوعيد في دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم.

لكي يتم كمال الإنذار، وتمام البشرى، لابد أن يبلغ الرسول قومه بالغيبات المستقبلية في الدنيا، كإنذار الأنبياء أقوامهم بالدجال، وغيبات الآخرة، ومن أبرزها القيامة وأهوالها، والمصير الأبدي، فإما إلى خلود في النعيم المقيم لمن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، أو جهنم هي حسب الكافرين الذين يتولون ساعين في الأرض الفساد.

وينبغي أن يُعلم أن الشرائع كلها قد اتفقت على إثبات المعاد ووقوع الحساب، وقد وقع الإرشاد من الرسل والأنبياء على بيان الشرائع والتوحيد والمعاد والنبوات²، وفي ذلك قال ابن القيم، رحمه الله تعالى: "والرسل من أولهم إلى خاتمهم، صلوات الله وسلامه عليهم، أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول، فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه، سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى..."³.

¹ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): الإخنائية، تحقيق: أحمد بن موسى العنزي، دار الخراز - حجة، ط1، 1420هـ، (ص:122).

² ينظر: الشوكاني: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات (ص:10).

³ ابن القيم: مدارج السالكين، (298/4).

فقول ابن القيم، رحمه الله تعالى، إنّ الرسل، عليهم السلام، عليهم أن يبينوا حال المدعويين، وهم أقوام الأنبياء بعد وصولهم إلى الله، أي بعد الموت، وفي تكثير شعبي لقومه مثال ذلك؛ فقد ذكر قومه بوجوب الإيمان باليوم الآخر، فقال تعالى عنه عليه السلام: ﴿لَوَالِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقُومُ عَابِدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وفي عموم المرسلين، أنهم أُنذروا أقوامهم اليوم الآخر وخوفوهم منه، يقول الله تعالى على لسان أقوام الرسل: ﴿قَالُوا يَوْمَئِذٍ مِّنْ بَعْثْنَا مِنْ قَبْلِكَ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52]، فيتبين من الآية الكريمة أنّ الكفار، حينما ينفخ نفخة البعث في الصور، إذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون، ويكون في أول ما يقولون: إن المرسلين قد صدقوا، وفي هذا دليلٌ بيّن أنّ المرسلين، عليهم السلام، إنما أُنذروا أقوامهم بيوم البعث، وما يترتب عليه، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط ومشاهد القيامة وعرضاتها ووقفاتها.

وإن أهل الشرائع، قبل الإسلام، من توافرت به أركان الإيمان الحقّة وتوابعها ولواحقها من الإيمان بالأنبياء كلهم، والكتب جميعها، كان لهم أجرهم عند ربهم فلم يخافوا ولم يحزنوا، ومن تمام الإيمان الذي أوجبه الله عليهم هو الإيمان باليوم الآخر إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

والآية التي لخصت الدين كله، حوّث في جمال سياقها الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَٰهَ إِلَّا أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ إِلَٰهَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الْمَلَائِكَةُ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ

الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: 177]، ومن لم يؤمن باليوم الآخر فإخلاصه مُعَابٌ، ونيته مضروبةٌ فاسدةٌ مختلةٌ؛ لأنه لا يرجو حساباً ولا يخاف عقاباً، وإذا ما عمل أي عمل، وإن كان خيراً فهو لا يرجو بهذا العمل وجه الله تعالى على اليقين، ذلك أنه لما عمله لم يرجُ اليوم الآخر، ولم يرجُ من الله تعالى ثوابه، ولذلك لن يهديهم الله تعالى، وأثبت لهم صفة الكفر، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ [البقرة: 264]

فهؤلاء القوم هم قرناء الشيطان؛ لأنه استحوذ عليهم، وجعل أعمالهم رثاء الناس، فاختل عندهم الإيمان بالله ابتداءً، وباليوم الآخر على التبعية، وفي وصف قلوبهم وأعمالهم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: 38-39]؛ فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية، فالاعتقادية؛ كالإيمان بالله، وبرسله، وباليوم الآخر، والعملية؛ كالأعمال العامة المذكورة في سور القرآن الكريم؛ كتحريم الزنا، والربا، والقتل، وغيرها¹.

ومما لا شك فيه أن العقيدة لها دورٌ مهمٌ في جمع شمل الأمم وتوحيد مسارها، وربط سابقها بلاتحها، وأولها بآخرها، فما دام أن الدين واحد في دعوة الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم، فإن جميع الأمم ستتفق على هذا، وما دامت الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة هي الأمانة التي حملها رسل الله جميعاً لأقوامهم

¹ ينظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى، (159/15).

جميعاً، فإن ذلك يوحد توجه الناس جميعاً إلى معبودٍ واحدٍ، وإلى سلوكٍ طريقٍ واحدٍ في الوصول إلى الله تعالى، ونيل رضاه.

إضافةً، إلى أن المقرر بدعوة الأنبياء جميعاً أنهم أكدوا وجوب الإيمان بوحدة الرسل، انطلاقاً من دعوتهم بوجوب الإيمان بوحداية المرسل، سبحانه، وهذا يوجب أيضاً وحدة الأمم المؤمنة برسل الله تعالى، فلا تكفر أمة رسول أمة أخرى، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

فلا يجوز لأمة أن تؤمن ببعضٍ وتكفر ببعضٍ، ولكنهم يصدقون بجميعهم، ويقولون أن ما جاءوا به جميعاً كان من عند الله، وأنهم دعوا إلى الله وإلى طاعته¹، ثم إن الأنبياء جميعاً لما خوفوا أقوامهم من حساب اليوم الآخر وبشروهم بما أعد الله تعالى للطائعين، فإنهم بذلك وحدوهم، وجمعوا شملهم على وحدة الهدف والغاية، ولما جعلوا الحاكمية في الدنيا لله وحده فإنهم ردّوا إليه مآل خصومات البشر، وضمنوا لهم عدالة القضاء والرضا بحكم الله.

إن العقيدة الحقّة لها دورٌ فعّالٌ في جمع أفراد الأمة الواحدة على صراطٍ واحدٍ مستقيمٍ لا عوج فيه، كما أن لها دوراً كبيراً في جمع الأمم جميعاً في سلكٍ واحدٍ كحبات ياقوتٍ انتظمت تترى، رباطها التآلف والمحبة والمودة، كلما جاءت أمةٌ سبحت بحمد ربها أن جعلها خلفاً لأختها في خلافة الأرض وعمارتها، وفق منهج الله تعالى.

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (126/6).

المبحث الثالث: وحدة الغاية والهدف في دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم

إن الذي يعيش مع قصص المرسلين التي وردت في القرآن الكريم، وحيثيات دعوتهم الواحدة مع أنبيائهم، يجد أنهم اتفقوا جميعاً على غايةٍ واحدةٍ، وهدفٍ واحدٍ، ودعوةٍ واحدةٍ، التي هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، واجتناب الشرك، ليخرجوهم بإذن ربهم من الظلمات إلى النور، ويبينوا لهم أن الواجب عليهم إخلاص العبادة لله وحده، وألا يشركوا به أحداً من مخلوقاته، وقد بلغ الرسل الكرام ما أمروا بتبليغه على التمام والكمال، وإن اختلفت شرائعهم عليهم السلام جميعاً¹.

وقد تمثل ذلك بصورةٍ عدّةٍ؛ منها وحدة الهم في إصلاح داريّ المعاش والمعاد، والدعوة إلى أثقل شيء في الميزان؛ مكارم الأخلاق، وبينما كانت قلوب الأنبياء عند الله ترعى فأجسادهم على الأرض كانت تسعى، وإلى جنان الخلد مقصدهم في دعوة أقوامهم، فبلغ منهم، عليهم السلام، أنهم إنما كانوا يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، كي يبلغوا بأقوامهم مبلغ الإيمان، وبالتالي دخول الجنان، ومن هذه النماذج على حرص الأنبياء في دعوة أقوامهم، وإصلاح دار الآخرة لهم، نوح، عليه السلام، مع ابنه حتى الرmq الأخير، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٦﴾ [هود: 45-46]، وقال السعدي، رحمه الله عن هذه الآيات: وقد قلت لي: فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك، ولن تخلف وعدك لي، فعسى حملته الشفقة، عليه الصلاة والسلام، بأن الله وعده بنجاة أهله، حسب أن الوعد لعامتهم، أهل الايمان منهم، ومن لم يؤمن كذلك، فلأجل هذا دعا ربه بهذا الدعاء، ومع ذلك، فقد فوض الأمر للحكمة الإلهية البالغة².

¹ الصنعاني، محمد بن اسماعيل (المتوفى: 1182هـ): تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، مطبعة سفير - الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ، (ص:5).

² ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن، (ص: 382).

وعلى النهج نفسه نهج الأنبياء جميعاً، فدونك أبا الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، حاملاً لواء هم الدعوة، متخطياً قومه، زماناً ومكاناً، إلى من سيأتي بعده من الأمم، هدايةً لهم، فحق له وسام الله بأنه أمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: 127-129]

فمحورية القلب الإبراهيمي، التي التزم بها إسماعيل أيضاً، عليهما السلام، هي واحدة؛ بأن يكونا مسلمين ومن ذريتهما كذلك، وأن يكون الرسول ﷺ، معلماً لهم الكتاب، تالياً آياته عليهم والحكمة، وأن يزكيهم، وإن من الصور التي تقضي إلى محبة أبي الأنبياء كذلك، هي أيضاً أن رحمته بالأقوام كانت متعدية إلى رفاع الأرض قاطبة غير مقتصرة على حيثيات المكان الذي يعيش فيه، فها هو يجادل الملائكة في قوم لوطٍ رحمةً بهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَذَّكَّرُ عَنْهُمْ أَرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكَنٍ عَدَابٍ عَنِ الرَّحْمَنِ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 74-76].

قال ابن عجيبة: "ظاهر الآية الكريمة: {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}، أن جداله كان عن قومه فقط لفرط الرحمة عليه، كما هو حاله، ولذلك قال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}... حتى قال له تعالى: {يَذَّكَّرُ عَنْهُمْ أَرَضَ عَنْ هَٰذَا}، عندما لزمته العقوبة، فتأمله"¹.

يقول الحق، جل جلاله: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ} وهو الذي أوجسه في ذاته من الخوف بدايةً، وجاءته البشري مكان الروح، أخذ يخاصم ملائكتنا في شأن قوم لوطٍ، ويأتي بالذي يفيد دفاعاً عنهم، قال: إن فيها

¹ ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ): البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، ط1، 1419هـ، (301/4).

لوطًا، فقالوا نحن أعلم بمن فيها، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ}، ليس في عجلٍ من أن ينتقم إلى الذي أساء إليه، {أَوَّه} كثيرا ما يتأوه ويتأسف على البشر، {مُنِيبٌ} رجَّاعٌ إلى الله. والغاية من هذا: ذكر الذي حمل إبراهيم على الجدل، وهو: فرط رحمته ورقة قلبه، قال عز وجل على سياق كلام الملائكة: يا إبراهيم أعرض عن هذه المجادلة؛ إنه قد جاء أمر ربك بأن يهلكوا، ونزل القضاء الأزلي بهم، ولا راد لذلك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، أي غير منصرفٍ بمجادلةٍ أو دعاءٍ، أو غير هذا، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ} حلِيمٌ لأنه لم يكن يدعو على قومه، بل قال: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹.

والحاصل أن إبراهيم، عليه السلام، حملته الشفقة والرحمة، حتى صدر عنه ما صدر، مع خلته واصطفائيته؛ فالشفقة والرحمة من شأن الصالحين والعارفين المقربين، غير أن العارفين بالله مع مراد مولاهم، يشفقون على عباد الله، ما لم يتعين مراد الله؛ فالله أرحم بعباده من غيره، ولذلك قال لخليله، لما تعين قضاؤه: يا إبراهيم أعرض عن هذا².

وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا، ولكن واث النبوة يعقوب، عليه السلام، الكريم ابن الكريم ابن الكريم، قد ورث من أبيه ومن جدّه إبراهيم من قبل هذه الصفة، أقصد الحرص على دار المعاد، فقبل وصيتهم، وعمل بها وورثها، فكان فأول ما أوصى بمفتاح الهداية والنجاة، أقصد به الإسلام، إذ قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132-133]

¹ ينظر: المصدر نفسه، (544/2).

² المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ثم أوثق الله الكتاب الذين اصطفى من عباده والحمد لله، وعلى رأس أولئك المصطفين سيدهم وحبيبهم وشفيعهم رسول الله ﷺ وفعلاً، ورث ﷺ هذا المبدأ، مبدأ الرحمة والحرص على الخير، ويتمثل ذلك بكل موقف من مواقف سيرته العطرة، ومن أفضل من وصف حاله للناس رب العالمين، لما قال في شأن الحبيب الرؤوف الرحيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 128)

عزيزٌ على رسول الله ﷺ كلُّ عَنَتٍ، أو مشقةٍ، وإن أعظم حرصٍ له ﷺ أن تدخلوا النار، {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} قال: أن تدخلوا الجنة، وحريصٌ عليكم أن تؤمنوا، وشحيحٌ ﷺ بأن تدخلوا النار، {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} فالرسول ﷺ لمبالغ في الرأفة والشفقة، ولم يجمع الله لأحدٍ من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ فإنه قال: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}، وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: 65).

ونظم الآية: لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ حريصٌ بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ، عزيزٌ عليه ما عنتم لا يهمله إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم، فلا تهتموا بما عنتم ما أقمت على سنته؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة، صلوات الله وسلامه عليه¹.

وفي رسول الله ﷺ آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله تعالى عن مدى حرصه على أمته خاصةً، والناس عامةً؛ ففيه قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159)

وقال جل في علاه أيضاً: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ 107 قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ 108} [الأنبياء: 107-108]، وقد جمع ابن حجر الآيتين مع حديث الأخشبين، إذ قال، رحمه

¹ ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (302/8).

الله تعالى: "وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ، على قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى:

﴿فَمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]¹.

وفي الحديث عن عائشة، رضي الله عنها؛ زوج النبي ﷺ، أنها قالت للنبي ﷺ: "هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العَقَبَة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت. وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستَقِ إلا وأنا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال فسَلَّمَ عليَّ، ثُمَّ قال: يا مُحَمَّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبِقَ عليهم الأخشبين. فقال النَّبِيُّ ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً"².

فرحمة النبي ﷺ، بأنَّه لم يُرْسَلْ بيسيرٍ من الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما هو مناط سعادة الدارين، إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة، أو لم يُرسل في حال من الأحوال، إلا حال كونه رحمةً لنا، فإن ما بُعث به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأٌ لانتظام مصالحنا في النشأتين، ومن لم يُضرب له في هذه المغامر بسهمٍ فإنما أوتي من قبل نفسه، حيث فرط في اتباعه، وهو ﷺ، رحمةً حتى في حق الكفار في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال، والأمن من المسخ والخسف والغرق، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾³.

¹ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي أبو الفضل الشافعي (المتوفى: 852هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، 1379هـ، (316/6).

² البخاري: صحيح البخاري، حديث (3231). مسلم، صحيح مسلم، حديث (1795).

³ ينظر: ابن عجيبة: البحر المديد، (506/2).

فالنبي، ﷺ، رحمة للعالمين؛ مؤمنهم وكافرهم، إلا أن المؤمن له الحظ الأوفر من الرحمة؛ وذلك أنه ينال من الرحمة في الدنيا والآخرة، وأما الكافر فلا نصيب له في الدار الأخرى، قال ابن عباس: "من آمن بالله ورسوله تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسح والقذف، فذلك الرحمة في الدنيا"¹.

وعليه، فينبغي على المسلم أن يبادل الرسول، ﷺ، الحب، وأن يكون تولد الفرح في قلبه لفضل الله ورحمته، فإنما قول الله تعالى: أي بتوحيده ونبيه محمد، ﷺ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [58] أي بتوحيده ونبيه محمد، ﷺ، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]².

وقد شبه الزمخشري رحمة الرسول بعين الماء المنفجرة إذ قال، رحمه الله: ما كان إرساله، ﷺ، إلا رحمة للعالمين؛ لأنه أتى بالذي يسعدهم إن هم أطاعوه، ومن أعرض وعصى فإنما هلك من عند نفسه؛ حيث أضاع حظه منها، ومثاله: أن يفجر الله عيناً غدقةً، فيسقي أناس ثمارهم وأنعامهم بمائها فيغنموا، ويبقى الآخرون قد فرطوا عن السقي فيهلكوا؛ فالعين المتفجرة في ذاتها، رحمة من الله ونعمة لكل من الصنفين، ولكن من كسل قد خذل نفسه، حين منعها الذي ينفعها، وكونه رحمة للكفار، لأن عقوبتهم تأخرت لوجوده وأمنوا به من الاستئصال³.

بل إن ذكر الله لرسول الله، ﷺ، في أنه رحمة للعالمين، إنما هو إرشاد له، ﷺ، من رب العالمين على أن يكون كذلك، فينبغي أن يعلم أنه تعالى يرشد رسوله إلى الرفق واللطف في آيات كثيرة؛ منها قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] ومنها قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرْهُمْ﴾ [آل عمران: 159]⁴.

¹ مجاهد: تفسير مجاهد، (ص: 476).

² ينظر: التستري: تفسير التستري، (ص: 76).

³ ينظر: الزمخشري: الكشاف، (3/138).

⁴ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (15/497).

المطلب الثاني: وحدة إصلاح دار المعاش

ما ساقه البحث في ما مضى يصلح كثير منه على أن يكون خير دليل على أن الأنبياء اهتموا بإصلاح دنيا العباد، مع وضع الثقل في إصلاح الدار الآخرة، وقد تم الاستشهاد بإبراهيم، عليه السلام، في المبحث السابق، وبه يكون الاستهلال في هذا المبحث إذ قال الله تعالى مخبراً عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126]، وفي السورة التي سميت باسمه، عليه السلام، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ١٢٧﴾ [إبراهيم: 37] فقد كان من أدعية أبي الأنبياء، عليه السلام، أنه دعا الله عز وجل الأمن لأهل مكة، وسأل كذلك مقدمات الأمن ومستلزماته بأن يمن عليهم بالثمر لمن آمن منهم، فكانه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم فكان التوجيه الإلهي بأن المؤمن والكافر مشتركان في الرزق؛ لأنه خلقهم، فهذه من عطاءات الرب الخالق، في حين أن العقوبة للمؤمنين من دون الكفار؛ فهي من العطاءات الإلهية، فلما قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ١٢٨﴾ [البقرة: 124] قال عز وجل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ١٢٩﴾ [البقرة: 124]، فخشي إبراهيم، وهو يسأل لمن سيقومون في مكة أن تكون استجابة الله، عز وجل، كالاستجابة السابقة، مثل أن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون، فاستدرك إبراهيم وقال: {وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم}، ولكن الله، سبحانه، أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية؛ فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يستحقه إلا المؤمن، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمنون والكفار؛ لأن الله هو الذي خلقنا جميعاً في هذه الحياة وكفل لنا جميعنا رزقنا، وكأن الحق، سبحانه، حين قال: {لا ينال عهدي الظالمين}، كان يتحدث عن عطايا المنهج التي لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر، لذلك قال الحق: {ومن كفر} وفي هذا تصحيح للمدارك؛ ليعرف أن كل

من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مصدقاً كان أو جاحداً، والخير في هذه الحياة مشاع؛ فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك، وفي هذا بيانٌ عظيمٌ أن إبراهيم، عليه السلام، قد حرص أيضاً على صلاح دار المعاش¹.

وقد حرص موسى، عليه السلام، كذلك على صلاح الدنيا لقومه، ويتمثل ذلك في سؤاله لرب العالمين بأساس قيام الحياة؛ إذ سأل الله تعالى الماء بعد النجاة من فرعون، فقال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾ [البقرة: 60]، ومن قبل، كانت دعوة موسى، عليه السلام، لفرعون العدو المعاند دعوة إصلاح الدارين بلسان اللين بأمر الله تعالى، إذ قال له نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْتَبِئَ﴾ [النازعات: 18-19]؛ لأن ظاهره الاستفهام والمشورة، وعرض ما فيه صلاح الدارين².

وحتى التكاليف الشرعية التي افترضها الأنبياء على أممهم بوحى الله، عز وجل، فيها صلاح الدارين؛ فالمعاملات بين الناس إنما هي من الدين، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُكُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَقْضُوا أَلْمِيزَاتِ ۖ إِلَيَّ أَرْبُكُمْ يَخِيرُ وَإِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۖ﴾ [الشعراوي: 84-85].

¹ ينظر: الشعراوي: تفسير الشعراوي، (583/1).

² النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (المتوفى: 850هـ): غرائب القرآن و رغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العملية - بيروت، ط1، 1416هـ، (547/4).

، فإذا ما تحصّلت تقوى الله في أوامره ونواهيه، أرشدنا الله إلى ما فيه صلاح الدارين، والله بكل شيء من مصالح عباده عليم؛ فقد أتى الله آل إبراهيم، الذين هم أسلاف محمد، الكتاب الذي هو بيان الشرائع والحكمة التي هي الوقوف على الأسرار والحقائق والعمل بما يتضمن صلاح الدارين، وهذه الشرائع رحمة من الله تعالى على عباده؛ لأن كل نبي رحمة لأمته؛ فبه يهدون إلى صلاح الدنيا والآخرة¹.

وقال الإمام البقاعي، رحمه الله تعالى، في تفسيره عندما أتى على تناسب آيات سورة المزمل لما وصل إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۖ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۖ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۖ﴾ [المزمل: 5-7] "ولما كان قيام الليل يجمع القول والفعل، ويبين ما في الفعل لأنه أشق، فكان بتقديم الترغيب بالمدحة أولى، أردفه القول فقال: {وَأَقْوَمُ قِيلًا}؛ أي وأعظم سدادًا من جهة القيل في فهمه، ووقعه في النفوس بحضور القلب، وريافة الليل بهدوء الأصواء وتجلي المولى، عز وجل، بتحصيل البركات، وأخلص من السمعة والقصود الدنيات.

ولما بين، تعالى، من أول السورة إلى هنا ما به صلاح الدين الذي هو عصمة الأمر، وبه صلاح الدارين، وأظهر ما للقيام من الفضل، فبات التقدير حتمًا: فالزمه لتتال هذه البركات، قال معللاً محققاً له مبيناً ما به صلاح الدنيا التي هي فيها المعاش، وصلاحها وسيلة إلى صلاح المقصود، وهو الدين وهو الذي ينبغي له لئلا يكون كلا على الناس ليحصل من الرزق ما يعينه على دينه ويوسع به على عيال الله من غير ملل ولا ضجر ولا كسل ولا مبالغة، مؤكداً لما للنفس من الكسل عنه: {إن لك} أي أيها المتجهّد، أو يا أكرم العباد إن كان الخطاب للنبي ﷺ، ليكون أكد في إلزام الأمة به {في النهار} الذي هو محل السعي في مصالح الدنيا².

¹ ينظر: النيسابوري: غرائب القرآن، (4/428 و 547 و 478).

² البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: 885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط1، 1431هـ (تاريخ النشر بالشاملة)، (12/21).

وكذلك كانت دعوة أمة محمد ﷺ، في صلاح الحياة الدنيا والمعاد إذ لما صرّف الله تعالى في القرآن من الوعيد بقوله تعالى: {وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} أي وتوعدهم فيه بالوإن من التخويف، كي يحاذروا الشرك والوقوع في الخطايا والآثام، أو يحدث لهم موعظة تحملهم إلى عمل القربات. إيجاز ذلك، إنهم بدراستهم ما بين مرتبتين: الوصول إلى مرتبة ترك المعاصي والآثام، أو الإرتقاء إلى مرتبة أعلى وهي فعل الطاعات وأداء الفروض والواجبات، وبعد تعظيم كتاب الله، أتبعها تعظيم نفسه فقال تعالى: {فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ} أي الله هو المتصرف بالأمر والنهي، هو الحقيق أن نرجو وعده، وأن نخشى وعيده، وهو الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، تقدس من ألا يكون إنزال القرآن مؤدياً إلى الغاية التي نزل لأجلها على من أنزل عليهم، وهي ترك المعاصي وفعل الطاعات.

ولا يخفى ما في هذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلهية، فيها صلاح الدارين، لا يحيد عنها إلا مخذولٌ محرومٌ، وأن ما تضمنه من الوعد والوعيد حقٌ كله، لا يحوم الباطل حول حماه، وأن المحق من أقبل عليه ب كله، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره¹.

وفي حق النبي، ﷺ، قال الله تعالى بأحسن ما وصف به رسول الله، ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

ومن حرصه علينا حرصه، ﷺ، على صلاح دنيانا التي هي دار المعاد، وصلاح الآخرة التي هي دار المعاش، وهو ما يفهم من رؤية الشافعي، رحمه الله إذ يرى أنه كان خيرته ﷺ المختار لوحيه، المجتبى لختم رسالاته، المفضل على كل الخلق، وأعمّ به الرحمة حتى شملت الجمادات والعوالم كلّها، واختتم نبوته، وأشمل ما بعث به نبيّ قبله، العالي ذكره في الحياة الدنيا، والشافع المشفع يوم القيامة، أحسن الخلق ذاتاً، وأعمهم لكل فضيلة رضيها في الدنيا والدين، وأفضلهم نسباً ومنزلاً، محمد عبده ونبيّه، خاصّ النعمة للمسلمين ، عام

¹ المراغي: تفسير المراغي، (155/16).

النفع في الدين والدنيا، فقال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}¹.

فيعز على النبي، ﷺ، ما شق على الأمة وآذاها وجهدها²، ودخول المضرة والمشقة عليها³ وشديد عليه مشقتها وكل مضرة تصيبنا⁴، وبهذا يتبين لنا أن رسالة الله تعالى عن طريق أنبيائه جاءت لإصلاح دار المعاد ودار المعاش؛ فهي دعوة لدين الله، وهي دعوة لصلاح الحياة الدنيا، ومن أبرز ما دعا إليه الأنبياء لصلاح الدنيا هو الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

المطلب الثالث: وحدة الدعوة إلى مكارم الأخلاق

لم تقتصر دعوة الأنبياء في القرآن على الملكات العقلية وحدها؛ فلقد غنوا في الوقت نفسه عنايةً كبيرةً بإيقاظ أشرف مشاعرنا، وأزكاها للوصول إلى مكارم الأخلاق، بيد أنه لم يحرك هذه المشاعر إلا تحت رقابة عقلنا، فدعوة القرآن بأنه يتوجه إلينا دائماً؛ أي يتوجه إلى ذلك الجانب المضيء من أنفسنا؛ إلى ملكتنا القادرة على أن نفهم، وأن نقدر في كل شيء ما يضر وما ينفع ليحوز من الأخلاق معاليها، ومن ثم تقوم القيم المختلفة⁵.

ومع قول الله الذي جمع مكارم الأخلاق برمتها، والتي تتلى كل جمعة من أعالي منابر المساجد، وهي أجمع آية في القرآن الكريم للخير والشر والهدى والضلال والوفاء بالعهود، يقول الله تعالى⁶: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90]، قال الواحدي، رحمه الله تعالى: "ذكر الله تعالى في الآية الأولى؛ فقال: {ونزلنا

¹ الشافعي: تفسير الإمام الشافعي، (965/2).

² ينظر الطبري: جامع البيان، (360/4).

³ ينظر: الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، (المتوفى: 427هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشر، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1422هـ - 2002م. (146/14).

⁴ الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ): الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي دار القلم الدار الشامية - دمشق، بيروت ط1، 1415هـ، (ص: 488).

⁵ ينظر: دراز، دستور محمد بن عبد الله (المتوفى: 1377هـ): دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط10، 1418هـ، (ص: 29).

⁶ ينظر: الطبري: جامع البيان، (280/17). وينظر: الثعلبي، الكشف والبيان، (45/3).

عليك الكتاب تبياناً لكل شيء}، ثم بين في هذه الآية الأمور به، والمنهي عنه مجملاً، فما من شيء يحتاج إليه في أمر دينهم مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية¹.

وفي دعوة الرسل لإقامة العدل الذي هو أساس قوام الأخلاق، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]؛ فأرسل الله تعالى الرسل بالمفصلات من البيان والدلائل، وأنزل معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، والميزان بالعدل ليعمل الناس بينهم بالعدل²، فلا يظلم أحد أحداً³.

ويقول التستري، رحمه الله تعالى، في تفسير قول الله، عز وجل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9] قال: "أي كانت قبلي رسلٌ يأمرون بما أمر به، وينهون عما أنهى عنه، وما كنت عجباً من الرسل، فإني لم أدعكم إلا إلى التوحيد، ولم أدلكم إلا على مكارم الأخلاق، وبهذا بعثت الأنبياء قبلي"⁴.

وفي تفسيره لقول الله، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] عرف التقوى التي هي مفاد العبادات التي دعا إليها الأنبياء، عليهم السلام، والتي حوت مكارم الأخلاق قائلاً: "والتقوى هو ترك كل شيء مذموم؛ فهو في الأمر ترك التسويف، وفي النهي ترك الفكرة، وفي الآداب مكارم الأخلاق، وفي الترغيب كتمان السر، وفي الترهيب انتقاء الوقوف عند الجهل. والتقوى هو التبري من كل شيء سوى الله، فمن لزم هذه الآداب في التقوى فهو أهل المغفرة"⁵.

¹ الواحدي: التفسير البسيط، (176/13).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (201/23).

³ القشيري: لطائف الإشارات، (544/3).

⁴ التستري: تفسير التستري، (ص: 144).

⁵ المصدر نفسه، (ص: 181).

ولمّا قضى الله تعالى بحكمته وعدله أن يكون الإنسان جسداً وروحاً، ظاهراً وباطناً، كانت الأخلاق الإسلامية تمثل صورة الإنسان الباطنة، الصورة التي محلها القلب الذي هو محل نظر الله تعالى، وهذه الصورة الباطنة هي قوام شخصية الإنسان المسلم؛ فالإنسان لا يقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]¹.

وعليه، فدعوة الأنبياء للأخلاق هي دعوة رقي يرقى الإنسان بها بنفسه مذكياً إياها، والتزكية هي أحد الأسس التي جاء بها الأنبياء، عليهم السلام، في دعوتهم، بل هي رابعة أربع بمثابة ميزان قياس لنجاح العبد في إجابة الرسل والأنبياء، إذ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129] ففهم النبي إبراهيم، عليه السلام، يتمثل بدعائه السابق الذكر في الآية، إذ هذه المقومات التي حددها، والأخلاق أساس فيها، إنما هي وظيفة الرسول، وهي التي تقاس عليها صلاح نفس المدعو أو فسادها، وكانت هذه الأركان محل الهداية من الله تعالى إذ قال جل في علاه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]

وكانت دعوة الأنبياء للأخلاق تجلي لاسم الله المنان؛ إذ يمين الله على المؤمنين بأن أرسل فيهم رسلاً ترقى أخلاقهم وتزكي نفوسهم، فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 14-19]، وكانت الأخلاق التي دعت إليها الرسل إنقاذاً من غياهب الضلال التي

¹ ينظر: حكيم، أبادير: التربية الأخلاقية، مطبعة اليقظة - القاهرة، 1922م، (ص: 118).

كانوا فيها من قبل إرسال الرسل بالتركية والعلم، إذ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ [الجمعة: 2]

وقد أخبرنا الله تعالى أن أقوام موسى وإبراهيم، عليهما السلام، أنزل عليهم تعالى في الصحف أن الإنسان

لا بد أن يزكي نفسه، إذ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 14-19]،

والتركية، في مدلولها ومعناها، تتقاطع مع الأخلاق في كثير من المحاور؛ فتهديب النفس، باطنًا وظاهرًا،

في حركاتها وسكناتها، لا بد أن يثمر رقيًا في الخلق على الصعيد الخاص، وعلى الصعيد العام¹.

وأما على تفصيل الحيثيات فنرى الآيات الكريمة كالدور المنثور في ذكر خاص النبي مع قومه، وهو يعالج

المشكلة الأخلاقية التي يعانون منها، ومثال ذلك، لما أخبرنا الله تعالى عن لوط، عليه السلام، حينما استنكر

ما ابتلينا به في زماننا، وهو ما لم يسبق قوم لوط أحد من العالمين بهذه الفاحشة، إذ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْطًا

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ

شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: 80-81].

ونبي الله شعيب كذلك يعالج مشكلة التطفيف في الميزان بأعذب أسلوب، وأرقى طرح، إذ قال الله تعالى عنه:

﴿وَالِإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ

رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ

¹ ينظر: الغزالي، محمد السقا (المتوفى: 1416هـ): خلق المسلم، دار الكتب الحديثة، 1974م، (ص: 15).

وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ

وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: 85-86]، وهوذّ كذلك دعا قومه إلى مكارم

الخلق حتى عند البطش، إذ قال تعالى عنه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ

تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: 128-131].

وفي رسولنا محمدٍ، ﷺ، التزكية كلها، ومكارم الخلق وجوامعه في شخصه، وفي دعوته، وفي معجزته الخالدة،

ففيه قال خالقه، والعليم به: ﴿خُلِقَ عَظِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [القلم: 4]، وفي شريعته سورة الحجرات التي سميت بسورة

الأخلاق، وفيها قال تعالى موضحاً الميزان الذي يتفاوت به الناس عنده، جل وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ

اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13].

وفيها الدعوة إلى الإصلاح، وإقامة العدل، والفسط، وبناء لبنات المجتمع القويم، إذ قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ

فَإِنْ فَأَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ

أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ

وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَالِبِ بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ

الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: 9-11].

وهذه الأمثلة تمثل نماذج من مكارم الأخلاق، وإنما هي على سبيل المثال، لا الحصر، وإلا فمحل ذلك

رسائل كثيرة، والله تعالى أعلى وأعلم.

الفصل الرابع

ملاحح الوحدة في دعوة النبي محمد ﷺ

المبحث الأول: وحدة العقيدة في دعوة النبي محمد ﷺ

إن من أهم ملاحح الوحدة، وأبرزها، وأعظمها، في دعوة النبي ﷺ، هو اتحاد العقيدة بينه وبين إخوانه الأنبياء، وقد أفرد الباحث هذا الفصل للكلام عن الوحدة في دعوة خير البشر، وسيد الأنبياء، حبيب الحق، جلّ وعلا، ﷺ، من حيث العقيدة المتمثلة في الدعوة إلى الإله الواحد، ومن حيث الشريعة المجسدة للدين الواحد؛ فقد تجلت الوحدة في أمهات العبادات.

فاتحاد عقيدة النبي، صلوات الله وسلامه عليه، مع إخوانه من النبيين، عليهم السلام، ارتكزت على أساس الإيمان بالله الواحد، والدعوة إلى دين الإسلام الذي هو دين أنبياء الله تعالى جميعاً، عليهم السلام، وهذا مدار المطلب الأول.

المطلب الأول: وحدة الإله في دعوة النبي محمد، ﷺ

في بداية الدعوة، دعا رسول الله، ﷺ، إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وإفراده بالعبودية، والقيام بحقيقة كلمة لا إله إلا الله، الكلمة الطيبة والشهادة المنجية، وهو نفسه ما دعا إليه الأنبياء والرسل من قبل؛ فأصل التوحيد والإيمان بالإله الواحد هو الركن الأساس فيما دعا إليه الأنبياء جمعاً، عليهم السلام، ولهذا قال لنبيه، ﷺ: ﴿فِيهِدْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: 90]¹.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] وفي الآية بيانٌ لأهم ما يحمله الرسول من ربه؛ فهو توجيهٌ إلى الطريق التي

¹ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (274/49) بتصرف.

ينبغي أن تسلك في ابتداء الدعوة؛ فقد كان عماد دعوة الرسل جميعاً بادئ بدءٍ شهادة أن لا إله إلا الله، وعبادة رب العالمين، وتوحيده الخالص¹، فلا تعبدوا يا أيها الناس غير الله، وبذلك أرسل الله الرسل جميعاً²، وفي الآية التي سبقت هذه الآية، توجية للنبي ﷺ، بأن يؤكد أنه امتدادٌ لسلسلة النبوة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 24]

فقد أبان الله الحجة عليهم في وجوب توحيده، وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ، قل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي، وذكر من قبلي إلا توحيد الله، عز وجل³، وقرئت في الشواذ: {هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي}، بالتثنية في "ذكر"، وكسر الميم من "من"⁴، ووجهها جيدٌ، ومعناه: هذا ذكرٌ مما أنزل على مما هو معي، وذكرٌ من قبلي... يريد بقوله "من معي" أي من الذي عندي، أو من الذي قبلي⁵.

وقد استعظم كفار قريش ما جاء به ﷺ، إذ قال تعالى بكتابه الكريم عنهم: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهاً وَحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]، ويتضح من الآية بغير خفاء أن النبي ﷺ، قد مضى في سنن الأنبياء السابقين في الدعوة بالأساس إلى توحيد الله تعالى على أنها العلاج لأسقام العصر الذي أرسل فيه، ومن سيأتي بعده كما كانت كلمة التوحيد هي الدواء الشافي على مر العصور فيما غبر من الأمم والأقوام.

¹ ينظر: مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، (75/3).

² ينظر: يحيى بن سلام ابن أبي ثعلبة التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (المتوفى: 200هـ): تفسير يحيى بن سلام تحقيق: الدكتور هند شلبي دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1425هـ، (307/1).

³ ينظر: الزجاج: معاني القرآن، (389/3).

⁴ ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي (المتوفى: 392هـ): المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط1، 1420هـ، (61/2).

⁵ الزجاج: معاني القرآن، (389/3).

وكان هذا النفور من المشركين لما ألفت نفوسهم الآلهة، فنفرت من التوحيد الذي هو الأصل الذي عليه الفطرة، فهم في ذلك على محض التقليد المذموم، ولو وفقوا لحسن النظر؛ لعلم كلٍّ منهم ما يأتي ويذر¹، وهذا لا يجسر عليه إلا الكفرة الذين توغلوا في الكفران المنهمكون في الغي، فلا كفران أصرح من تسميتهم من صدّقه الله كاذبًا، أو ساحرًا أو مجنونًا، ويعجبوا من التوحيد، وهو الحق الأبلج، ولا يعجبوا من الإشراك، وهو باطل لجلج².

ولن يكون للمشركين بوحدانية الله تعالى يوم القيامة إلا العذاب الأليم، والتبكيك العظيم؛ إذ عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراد، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء، فقد أرسل رسله وأنزل كتبه أمرًا بعبادته وحده لا شريك له ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: 36] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] وقال: ﴿وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45]³.

وقبل الأمر بالافتداء بالأنبياء، عليهم السلام، ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ثمانية عشر نبيًا، وقال تعالى بعد ذكرهم: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٧٧] ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 87-88]

¹ ينظر: الصرصري، نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الحنبلي (المتوفى: 716هـ): الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1426هـ، (ص534).

² ينظر: النسفي مدارك التنزيل (144/3).

³ ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (4/231).

{وَأَجْتَنِبْهُمْ} أي اجتناءً لحمل أمانة النبوة؛ لأنه لا يليق أخذ الاجتناء لما أتى في حق النبيين، عليهم السلام، إلا على الرسالة والنبوة، و المقصد من هذا الهدى هو معرفة توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريكات؛ لأنه قال بعده {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ}، فدل ذلك على أن المراد من ذلك الهدى كل ما يندرج تحت الأمر المضاد للشرك¹.

والمراد بهذا الهدى معرفة الله بوحديته، إذ ختم تعالى هذه الآية بنفي الشرك فقال: {وَلَوْ أَشْرَكُوا} والمعنى أنه لو أشركوا هؤلاء الأنبياء لحبطت عنهم عباداتهم وطاعاتهم، والقصد هو نفي طريق الشرك وإثبات التوحيد، وهذا التوحيد هو أساس اقتداء رسول الله محمد ﷺ بالأنبياء من قبله².

ومن ثم قال الله تعالى لنبيه الكريم: {أُولَئِكَ} الذين تم ذكرهم {الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيَهْدَاهُمْ أَقْتَدِهِ} بمعنى: إقتف، يا أيها النبي الأكرم، طريق هؤلاء النبيين المصطفين الأطهار، والتزم نهجهم، وقد لبى النبي ﷺ وصية الله؛ فسار بطريق إخوانه الأنبياء الأطهار، واقتفى أثرهم، وقد اقتدى ﷺ بهم؛ فاهتدى بهدايات أسلافه من الأنبياء، واجتمع فيه كل كمالٍ عندهم، فالتقت فيه صلوات الله عليه الفضائل والخصائص، فتميز بها عن العالمين كلهم، وأصبح سيد النبيين، وإمام الأتقياء، صلوات ربّي وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ولهذا الملحظ، تم الاستدلال بأن النبي ﷺ خير الرسل جميعاً³.

وملخص الكلام أن الإسلام هو دين الله عز وجل على لسان جميع الرسل والنبيين قولاً واحداً في الأصول والمقاصد، وهو أفراد الله عز وجل بتوحيد وإخلاص العبادة له قولاً وعملاً وحالاً وتنزيهه تعالى عن صفات النقص والاعتقاد بصفات الكمال له عز وجل، والتصديق بيوم القيامة، والاستعداد له بصالح الأعمال⁴.

¹ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (55/13).

² ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

³ ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن، (ص:263).

⁴ ينظر: رشيد رضا محمد ابن علي بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ): تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، (345/6).

المطلب الثاني: وحدة الدين في دعوة النبي محمد ﷺ

لم يكن رسول الله ﷺ، بدعاً من الرسل؛ إنما جاء متمماً ومكملاً لسلسلة المرسلين وخاتماً، يقول الله تعالى موجهاً حبيبه ﷺ، في دعوته الواحدة المكلّمة لأنبياء قبله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 9]، فهاهنا يرشد الله تعالى النبي ﷺ، بأن يقول له إته ما كان بدعاً من الرسل أو الأنبياء، ولا الأول على البشرية؛ وذلك لأن مبتدع الأشياء هو من أتى بها ابتداءً من غير أصلٍ ولا أول، ورسول الله تعالى ﷺ إنما جاء مكملاً ومتمماً ما جاء به إخوته الأنبياء من قبله¹، فهم إخوةٌ بصريح كلامه ﷺ إذ يقول: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحدٌ"².

إن قوم النبي ﷺ الذين نشأ بينهم، لم يكونوا على اطلاعٍ بعلم الأنبياء، بل كانوا ألدّ الناس طغياناً؛ فهم أعتى الناس يومئذٍ في الشرك والجهل وإنكار البعث والمعاد، وكانوا من أبعد الناس عن الإقرار بوحدانية الله، سبحانه، بالعبادة أو الحاكمية، ومن أعظم الأقوام شركاً بالله، تبارك وتعالى.

وعند النظر في القرآن والتوراة يتبين أنهما لا يختلفان في عموم الغايات من التوحيد، والنبوات، والأعمال بالجملة، وباقي الأسماء والصفات، ومن كان عنده بصيرة بهذا، علّم علماً لازماً الذي عبّر عنه النجاشي بأن هذا والذي جاء به عيسى مصدرهما من نفس المشكاة، وكذلك الذي ذكره ورقة بن نوفل بأنّ الناموس الذي أتى لموسى هو الذي أتى على محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

فإن ثبت وفاق الأنبياء على أمثال هذه من المقاصد الكلية العامة، وركن التوحيد ثبت صدقهم بالذي أخبروا به عن الرب عزّ وجل؛ فقد أنبأ محمداً ﷺ كالذي أخبر به موسى من غير تشاعر أو تواطؤ، فإنّ هذا برهانٌ

¹ ينظر: النهاوندي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي (المتوفى: 337هـ): اشتقاق أسماء الله، تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط2، 1406هـ، (ص:73).

² البخاري: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء باب: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم:16) حديث 3259 (1270/3). واللفظ له. مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفضائل باب فضائل عيسى، عليه السلام، حديث 2365 (96/7).

على اتحاد الأنبياء جميعهم في أصول الدين، وكما هو معلوم أن الأنبياء من قبل كانوا رجالاً من الناس ولم يكونوا ملائكة، وعلى ذلك، فإن محمداً ﷺ، لم يكن بدعاً من الرسل¹؛ فهو من جنسهم بشريّ مثلهم، وقد كذب الكفار بجنس الرسل كلهم، ولم يكن تكذيبهم بالواحد لخصوصه، وهذا بخلاف تكذيب اليهود والنصارى لمحمد ﷺ، فإنهم لم يكذبوا جنس الرسل، إنما كذبوا واحداً بعينه بخلاف مشركي العرب الذين لم يعرفوا الرسل، فإن الله يحتج عليهم في القرآن بإثبات جنس الرسالة، وأنه ليس بدعاً من الرسل.

لقد وُكِّلَ الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى بحفظ آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتفاء عما فيه من نهيه، فوفقههم جل ثناؤه لذلك، وأمر رسوله محمداً، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالافتداء بهم: {فَبِهَذَا هُمْ اقْتَدَوْهُ}، وامض على سبيلهم ونهجهم².

فإن كفر قومك من قريش، يا محمد، بآياتنا، وكذبوا وجدوا حقيقتها، فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، وخصّ بالذكر الثمانية عشرة الذين سماهم الله، تعالى ذكره، في الآيات قبل هذه الآية فلا يجدون حقيقة الآيات، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها³.

ثم إنه عز وجل أوصى النبي محمد، بمتابعة سلفه من إخوانه النبيين، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، في كل الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة⁴، قال تعالى له: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}، فالمراد به أنه عز وجل عندما أمره بالافتداء بهداهم، عليهم السلام، المتقدمين فهو ليس أولهم، فلم يكن {يَدْعَا مِنْ الرُّسُلِ} بمعنى: ليس بأول الرسل⁵.

¹ ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): شرح العقيدة الأصفهانية تحقيق: محمد بن رياض الأحمد المكتبة العصرية - بيروت، ط1، 1425هـ، (ص:206).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (518/11).

³ ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

⁴ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (541/12).

⁵ البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير باب تفسير سورة حم الأحقاف (1826/4).

ومن تمام هدى الأنبياء عدم سؤال الأجر جزاء إبلاغ الدين وإيصال الشريعة للبشر، ومما لاشك فيه أن النبي، ﷺ، قد اقتدى بهم في ذلك، فمن جملة ما قال لقومه: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}، ولا أسألكم المال أو الجعل؛ ذلك أن الوحي ما هو إلا ذكرى ونذير، كونه حاوياً كل ما يحتاج إليه في المعاش والمعاد، وفي ذلك دليل بأنه، صلى الله عليه وآله وسلم، مرسل إلى كل أهل الأرض لا إلى أناس دون آخرين، وبذلك يكون ﷺ، متمماً للأنبياء حتى في هداية ذراري أقوامهم، والله أعلم¹.

ولم يكن، عليه الصلاة والسلام، من دعاة الفرقة في شيء؛ فقد أبرأ الله نبيه ﷺ، من أرباب الفرقة؛ إذ يقول الحكيم العزيز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159]، إذاً، فالرسول، ﷺ، برئ من أرباب الفرقة والتحريف والتزوير في دين الله.

ومن عقوبة الفرقة البأس الشديد على بعضنا، والفتنة، فيقاتل بعضنا بعضاً، وذلك لاختلاط أمرنا وافتراق أمرائنا²، فجاء النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، فانعدام الوحدة هو فرقة واختلاف، والأدهى من ذلك أن الأمر هو العذاب العظيم واسوداد الوجوه يوم القيامة.

¹ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (57/13).

² ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (79).

المبحث الثاني: وحدة الشريعة في دعوة النبي محمد ﷺ

قدّم الباحث موضوع العقيدة لأهميته البالغة؛ فالعقيدة ينبثق منها العمل الذي يرتبط بالشريعة، والشريعة هي الطريق التي يسلكها صاحب العقيدة، فلما كانت العقيدة وجدانية جنانية، كانت الشريعة في أكثر مظاهرها متعلقةً بالأركان، ظاهرة للعيان، ولهذا الظهور ملامح يراها المسلم وغير المسلم، ويبرز موضوع الوحدة فيها، وفي كثير من مظاهرها، منها خطاب الله تعالى للأمة، ومنها أداء العبادات والشعائر، وهذا ما سيتم تجليته بحثاً في المطالب الآتية.

المطلب الأول: الوحدة في خطاب الله تعالى لأمة محمد، ﷺ، بالتزام الشريعة

إنّ خطاب الله تعالى بالشريعة للأمة بما يظهرها أنها واحدة لهو ملمحٌ عظيمٌ يُعترّ به، فربّها رب العالمين يخاطبها ويأمرها وينهاها على أنها وحدةٌ واحدةٌ، وذلك بارزٌ جدّاً في كلام الله تعالى، بل لا يكاد يخلو إخبارٌ أو أمرٌ أو نهْيٌ إلا بكونهم أمةً واحدةً، ومن الإخبار عَنَّا بوصف الأمة قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]

وفي سبب نزول الآية، أن وهب بن يهوذا ومالك بن الضيف، قالاً لأبي بن كعب، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة -رضوان الله عنهم-: نحن خيرٌ منكم، وديننا أفضل مما تدعوننا إليه. فأنزل الله هذه الآية¹.

ويحق التساؤل حول المخاطب بهذه الآية، وفي إجابة هذا التساؤل، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: هم المهاجرون مع رسول الله ﷺ، من مكة إلى المدينة، ويقول الضحاك: هم صحابة النبي ﷺ، خصوص الرواة

¹ ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ): أسباب النزول، تحقيق: كمال بسيوني زغلول دار الكتب العلمية - بيروت، 1411هـ، (ص/121).

والدعاة الذين أوصى الله بالطاعة لهم¹، وتوسّع أبو حيان إذ ارتأى بأنّ الخطاب إنما هو للأمة جمعاء، ويؤيد هذا كون أمة النبي ﷺ، على الناس شهداء، وفائدة خطاب الله تعالى للأمة على أنّهم أمة، تحريضاً بهذا الإخبار على الانقياد والطوعية والألفة والاجتماع².

ولا يظن ظانّ أن الفعل (كنتم) يوحي بأنّ الخيرية منقطعة!، فهذا محالّ بالنظر والاستقراء، فكان لا بد من توضيح المسألة إذا كنت يوماً شاهداً على من يحتج بها من أبناء جلدتنا منهزماً؛ فلفظة كان تأتي لنفي الوقوع والحدوث، أي: وجدتم خير أمة، وعليه فالفعل (كان) فعل تامّ، وإن كانت ناقصة، فهي هنا تدل على حدوث الأمر في زمن ماضٍ، ولا دلالة فيها على انقطاعه حتماً، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 23]، وبهذا التقدير يتحقق المقصد بكنتم أفضل الأمم، ويمكن أن يحمل معنى: كان نكرم موجود في الأمم السابقة فأنتم خير أمة، ويمكن أن يكون المعنى كنتم موصوفين في اللوح المحفوظ بأنكم خير أمة³.

وبكون الأمة هي أفضل الأمم وصفاً في اللوح المحفوظ وخيرها، فاللائق بأبنائها ألا يبطلوا هذه الفضيلة عن أنفسهم وألا يتزيلوا هذه الخصلة المحمودية، وأن يكونوا مستسلمين متقادين طائعين في الذي يتوجب عليهم من التكاليف⁴.

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (102/7).

² ينظر: أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ): البحر المحيط في التفسير تحقيق: صدقي محمد جميل دار الفكر - بيروت، ط1، 1420هـ، (299/3).

³ ينظر: الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله، (المتوفى: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415هـ (270/5).

⁴ ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (173/4).

ومن ثمرات كون هذه الأمة خير أمة، أَنَّ الخير في الأمة متعدٍ إلى سائر الأمم؛ فبأمة الإسلام تنتفع باقي الأمم؛ فقد تتعمد الرحمة سائر الأمم فيدخلون الجنة بسببها، وذلك ما فهمه أبو هريرة، رضي الله عنه، فقال في قول الله عزَّ وجلَّ: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»¹،².

وقال قتادة: هم أمة النبي، ﷺ، إذ لم يؤمر رسولٌ قبله بالقتال؛ فالمسلمون يجاهدون أهل الكفر فيدخل الكفار في الإسلام، فهم خير أمة أخرجت للناس³. وقال تعالى في سياق تكريم الأمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، وقال القرطبي، رحمه الله تعالى: "قال علماءنا أخبرنا الله -عزَّ وجل- في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلنا أولاً مكاناً، وإن كنا آخرًا زماناً كما قال، عليه السلام: "نحن الآخرون الأولون"⁴، وذلك برهاناً بأن الشهادة لا تتبغى إلا لأهل العدالة، ولا تنفذ شهادة غير العدول على من سواهم إلا أن يكونوا مثلهم عدولاً⁵.

فأمة محمد ﷺ، أمة قائمة بالعدل بأمر ربها، ولما وصفهم ربهم تعالى بأوصافٍ جليةٍ أقبل عليهم تأنيساً لهم واستعطافاً عليهم، فخطبهم بأن ما تفعلون من الخير فلا تمنعون ثوابه؛ لأنه موضع عطف عليهم وترحم⁶، ومن تمام التعطف والترحم أن أمة رسول الله ﷺ، هي الأمة المجتابة المصطفاة، إذ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ

¹ البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير باب: كنتم خير أمة أخرجت للناس (آل عمران: 110) حديث (4281) (1660/4).

² أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (المتوفى: 982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 1431هـ، -النشر بالشاملة (71/2).

³ المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

⁴ رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة باب: هل على من لم يشهد الجمعة غسل، من النساء والصبيان وغيرهم حديث (876)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الجمعة باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة حديث (855). من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

⁵ ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (155156/2).

⁶ ينظر: أبو حيان: البحر المحيط، (313/3).

اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا

وَلِبَاسُهَا مِنْهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ [فاطر: 32-33]

فهم المصطفون لحكمة بعلم الله الأزلي، الوارثون في الدنيا ثمرة النبوة، وفي الآخرة جنات عدن مكرمين، والملاحظ أن الظالم لنفسه، أهل الإجمام¹ من الأمة التي اصطفاه الله كذلك.

وفي الآية دلالة على أن المؤمنين مغفور لهم، ومقتصدهم الظالم لنفسه²، فأعطاهم الكتاب بلفظ الإرث، أو الميراث توسعاً، ثم قدم الظالم للفتة، على السابق، مع أنه أقل استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم؛ فهو مكسور القلب، ولا احتمال لوقته طول المدافعة³.

وكان الإمام أحمد لا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، كبيراً كان أو صغيراً إلا بترك الصلاة؛ فمن تركها فقد كفر وحل قتله، ويستدل بقوله، عز وجل ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله﴾، فقد جمع الله تعالى بينهم في الاصطفاء⁴.

فأمة النبي ﷺ، من الأصحاب والتابعين، ومن تبعهم، ومن بعدهم إلى يوم القيامة، كلهم تحت رعاية الله تعالى، ومحفوظون باللطف الإلهي؛ لأن الاصطفاء وقع لهم دون باقي الأمم، وجعلهم الأمة الوسط فكانوا الشهداء على سائر الأمم، واختصهم بالانتساب إلى أفضل أنبيائه، والكتاب هنا يراد به العقائد والأحكام والمعاني التي حواها القرآن، فالكريم قد أعطى أمة النبي الفرقان، وقد شمل الكتب المنزلة من قبل، فكأنه أورث أمة النبي الكتب التي كانت في سالف الأمم، ثم أنزلهم مراتباً في السعي والعمل ووعدهم بكريم الجزاء⁵.

¹ الطبري: جامع البيان، (465/20).

² الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، (268/4).

³ ينظر: القشيري: لطائف الإشارات، (317/1).

⁴ ينظر: أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى 241هـ): العقيدة رواية أبي بكر الخلال، تحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان دار قتيبة - دمشق، ط1، 1408هـ، باب الميزان (ص:120).

⁵ ينظر: ابن عجيبة: البحر المديد، (542/4).

المطلب الثاني: وحدة أداء أمهات العبادات في دعوة النبي محمد ﷺ

لما كانت العبادات هي الممارسات العملية للمعتقد، وهي ميزان التصديق لما وقر في القلب، فإنَّ العمل بالأركان تتجلى فيه وحدة الأمة؛ فالأمة عندما تأتي بالعبادات والشعائر فإن ذلك يزيد لها قوة وصلابة ومتانة للفرد المسلم والجماعة المسلمة، ولعلَّ مظهر الوحدة البارز في أمهات العبادات خاصة، وسائر الشعائر عامة، من أكثر ما يغيظ أعداء الوحدة من الكفار والمنافقين، وأبرز ما يكون ذلك في شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وشعيرة الحج¹.

أولاً: الشهادتان

إن اللسان مغرفة القلب، وإذا نطق لسان صاحب المروءة فلا بد أن يكون ما أتى به اللسان موافقاً لما في القلب²، وإلا وصم بالنفاق أو الكذب.

وإذا سكنت مخافة الله تعالى وخشيته القلب فإن المرء لا ينطق إلا بما يعنيه³، وإنَّ مما دعا إليه الإسلام أن يُنطق به الشهادتان، فهما علم على الإسلام ظاهراً؛ فالشهادة تحقن الدم من أن يسفك؛ ذلك أنَّ رسول الله ﷺ، لم يقتل المنافق بشهادته عليه، فجعل ﷺ، الشهادة عصمةً للدم والمال، لقوله ﷺ: "إذا شهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله"⁴، وكَلَّهم مع علمه بهم إلى يوم تبلى السرائر، ويمتاز المؤمن من الكافر، وقد أجمعوا أن الزنديق إذا أظهر الزندقة يستتاب كغير الزنديق، ودل

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (648/38).

² ينظر: ابن المرزبان، أبو بكر محمد بن خلف المحولي (المتوفى: 309هـ): المروءة، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف دار ابن حزم، بيروت - لبنان ط1، 1420هـ، (ص: 105).

³ ينظر: القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت 465 هـ): الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف دار المعارف - القاهرة، 1431هـ - النشر بالشاملة، (126/1).

⁴ البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان باب: [فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم] (التوبة: 5) حديث (25) (17/1). ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله أحاديث (343536) (39/1).

قوله عصموا مني دماءهم على أن من أهل القبلة من يشهد بها غير مخلص وأنها تحقن دمه، وحسابه على الله، وأجمعوا أن أحكام الدنيا على الظاهر وإلى الله، عز وجل، السرائر¹.

وعهود الله كثيرة، بعضها مترتب على بعض، والوفاء بكل واحد له مقابلة؛ فأول منزلته إظهار الشهادتين، ويقابله من الله تعالى حق الدماء والأموال كما قال، عليه السلام: "من قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ودمه"²، والشهادتان هما مفتاح الوصول إلى الآخرة³.

ثانيًا: الصلاة

ومن الشعائر التي تبرز فيها وحدة الصف المسلم الصلاة؛ فمن شأن قامة الصلاة أن تكون من الأعمدة الراسخة في ثبوت الاعتصام⁴، فالصلاة من أمهات العبادات وأجلّها في بناء الإسلام، وهي من المجالات التي ترسم بها الوحدة على أرض الواقع ارتسامًا مبيّنًا.

فالصلاة، التي هي عمود الدين، تتجلى فيها وحدة الأمة الإسلامية في الباطن والظاهر، فأما الباطن فمن قول الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهذه الآية والتي تليها، دعاء جماعي، إذ ندعو الله بالتزام الصراط الجماعي المستقيم في دعائنا الذي علمنا إياه ربنا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] فيهما أسرار الخلق والأمر، والمعاش والمعاد، وهي متضمنة لأعظم المقاصد، وأجل الوسائل؛ فأفضل غاية العبودية له، وأحسن وسيلة معونته، فهو تعالى المعبود الحق المستحق للعبادة وليس ذلك إلا له، ولن تجد معيناً على عبادته سواه، فعبادته أسمى غاية،

¹ ينظر: ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ): الاستنكار، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض دار الكتب العلمية - بيروت. 1421هـ (358/2).

² البخاري: صحيح البخاري، كتاب الإيمان باب: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} (التوبة: 5) حديث (25) (17/1). ومسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله أحاديث (343536) (39/1).

³ ينظر: الراغب الأصفهاني: تفسير الراغب الأصفهاني، (168/1).

⁴ ينظر: الطبري: جامع البيان، (648/16).

ومعونه خير الوسائل... وتضمنت الآية على قسمي التوحيد؛ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وشملت هذه العبادة اسم «الله» واسم «الرب»، فالله عز وجلّ يتعبد له بالألوهية، ويستعان به بالربوبية، ويهدي بالرحمة إلى الصراط المستقيم¹.

إذًا، فالفاتحة من الصلاة التي فيها دعاء لجميع المسلمين، وأن نكون معهم على الصراط المستقيم بالتذلل وخضوع القلب لله، عز وجل، فهذا القدر كافٍ للدلالة على الباطن، أما الظاهر فهو متجلٍ بأجمل صورة، وأبهى حلة، إذ الكل يصطف بسكناته وحركاته كأنه بنيان مرصوصٍ واحد، ويتجلّى هذا الجمال لما كان الحديث عن الصلاة وما تظهره من وحدة في صلاة الجمعة، فقد قضى الله تعالى أن يكون في هذا اليوم الذي هو العيد الأسبوعي للمسلمين يجتمعون فيه في واجب افترضه الله، عز وجل، عليهم، وهو أعظم ما في هذا اليوم؛ ألا هو الاجتماع لأداء صلاة الجمعة، الجمعة التي سمى الله تعالى سورة (الجمعة) في القرآن باسمها، وفيها وفي (الصف) السورة التي قبلها، محورية الاصطفاف؛ فالإشارة إلى اصطفاف في العبادة موجود في كلتا السورتين، أما في الأولى، فبين في مقابلة العدو، وفي سورة الجمعة فلأن فيها الأمر بالجمعة، وشرطها الجماعة التي تستوجب الاصطفاف².

هذه الوحدة المتمثلة في الجمعة تعالج في أخلاذ الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المصطاة أخيرًا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية؛ وأن هذا امتنانٌ من الله عليها، وأن بعثة النبي الخاتم في الأميين، وهم العرب، فضلٌ عظيمٌ يستحق الالتفات والشكر، ويقتضي أيضًا بتكاليفٍ تنهض بها الجماعة التي استجابت للرسول ﷺ، فاحتملت أمانة الدين؛ فقد شاء الله أن تنمو نواتها وتزهر، من بعد ما نكص بنو إسرائيل عن حملها، وانقطع اتصالهم بأمانة الوحي، وباتوا يحملون كتابهم كالحمار يحمل أسفارًا، من دون فهم لمعانيها، ولا عملٍ بمراميها.

¹ ينظر: ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): الصلاة، تحقيق: عدنان بن صفاخان البخاري، دار عطاءات العلم، (الرياض) ط4، 1440هـ-2019م، (352/1).

² ينظر: الألويسي: روح المعاني، (287/14).

هذه هي الحقيقة الأساسية التي تقرها السورة في قلوب أهل الاسلام، الذي كان منهم في المدينة يومئذ على التخصيص، وهم من ناط الله بهم أن يحققوا المنهج الإسلامي في أتم صورةٍ حاصلةٍ، والذين أتوا من بعدهم من الذي ذكرتهم السورة، ووصلتهم بالسلسلة الممتدة على الزمان، وفي ذات الوقت، تداوي السورة بعض الأحوال التي قد وقعت في أوائل تلك الجماعة، في سيرورة عملية البناء النفسي الدقيقة المتطاولة، وتنقيها من عوالق الشوائب المعيقة من الحرص العجل والرغبة في الربح الدنيوي، وترسبات البيئة والأعراف، وخاصة حب المال، ومقدمات تحصيله الملهية عن كبرى الأمانات، والتهيئة النفسية لها، في ملمح إلى الواقعة التي حدثت بعد مجيء القافلة¹.

ولما جعل الله تعالى يوم الجمعة يوم شكرٍ وإظهار فرحةٍ وإعظام نعمةٍ، احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به وقعت شهرته، فاجتمعت الجماعات له كالسنة في الأعياد، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بهذه النعمة، وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر، ولما كان مدار التعظيم حول الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليحصل الاجتماع².

وقد قال الطبري، في تفسير الأمر الجامع، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: 62]: "ما المؤمنون حق الإيمان، إلا الذين صدقوا الله ورسوله {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ}، يقول: وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ، {عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ}: على أمرٍ يجمع جميعهم من حرب قدمت، أو صلاةٍ اجتمع لها، أو مشورةٍ في أمر نازل {لَمْ يَذْهَبُوا}، يقول: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ"³.

¹ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، (3563/6).

² ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، (543/30).

³ الطبري: جامع البيان، (228/19).

وفي الأمر الجامع، جمع الماوردي جميع الأقوال، حيث ذكر، رحمه الله تعالى: فيه ثلاثة أقوال؛ أولها: أن الأمر الجامع صلاة الجمعة، وصلاة العيدان، وصلاة الاستسقاء، وكل شيء يكون فيه الخطبة. ثانيها: أنه الجهاد، الثالث: طاعة الله¹.

فاجتماع المسلمين للصلاة في أيام الله تعالى إنما هو من صلب الدين وإقامته إقامةً للدين، والعيد من العود، لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك. فالعيد: يجمع أمورًا، منها: يومٌ عائِدٌ كيوم الفطر، ويوم الجمعة، ومنها: اجتماعٌ فيه، ومنها: أعمالٌ تتبع ذلك: من العبادات، والعبادات، وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا، وكل هذه الأمور قد تسمى عيدًا². وأنت الأحاديث متوعة لمن يخالف الصف، بأن يخالف الله بين القلوب جزاء ذلك؛ فعن أبي مسعود قال: "كان رسول الله ﷺ، يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، لئلي منكم أولو الأحلام والنهي، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"³.

وهو ما سمعه سماك بن حرب، حيث قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: "كان رسول الله ﷺ، يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح، حتى رأى أنا قد عقلنا عنه، ثم خرج يومًا فقام حتى كاد يكبر، فرأى رجلًا باديًا صدره من الصف، فقال: عباد الله، لتسوّن صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم"⁴.

فينبغي للجماعة أن يسوي صفوفهم، والإمام يتعهد ذلك منهم، ويأمرهم به، ويحرص عليه اقتداءً بالنبي ﷺ⁵، وحثّ النبي ﷺ، على التراص في الصلاة، بمعنى الانضمام، ومنها رصت البنيان رصًا، أي: ضمته،

¹ ينظر: الماوردي: النكت والعيون، (127/4)

² ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان 1419هـ-1999م، (1/496).

³ مسلم: صحيح مسلم، كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها. والازدحام على الصف الأول والمساواة إليها. وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام حديث (122) (30/2).

⁴ مسلم: صحيح مسلم، كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها. والازدحام على الصف الأول والمساواة إليها. وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام حديث (128) (30/2).

⁵ ينظر: الجرجاني: أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري (المتوفى: 403هـ): المنهاج في شعب الإيمان، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط1، 1399هـ-1979م، (2/335).

وتراصوا في الصفوف من ذلك، وقد ذكر الله الذين يقاتلون في سبيله صفًا، كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ، ومدحهم بذلك، وقضى بالمحبة للمصطفين في طاعته، فدل أن الصف في الصلاة كالصف في سبيل الله¹.

ومعنى "أو ليخالفن الله بين وجوهكم" فيه أوجهٌ؛ منها: أنَّ اختلال صفوف الصلاة في الظاهر يؤثر في وحدة الصف ولحمته في الباطن، فتختلف القلوب، ومنها أن من يخالف في الصف يعاقب باختلاف صورة الوجه في المسخ والتغيير حتى يصل به الأمر إلى أن يحول الله صورته صورة حمار²؛ لأن المسخ في هذه الأمة يكون عند مخالفة أمر الله تعالى، ومن ذلك ما ورد عن عمران بن الحصين أن رسول الله، ﷺ، قال: "في هذه الأمة خسفٌ ومسحٌ وقذفٌ، فقال رجلٌ من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القينات، والمعازف، وشربت الخمر"³.

وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة، قال: قال محمد، ﷺ: "أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار"⁴. وعليه، فلا غرابة في أن يمسح الله شخصًا من هذه الأمة إلى هيئةٍ أخرى.

فمخالفتهم في الصفوف مخالفةٌ في ظواهرهم، واختلاف الظواهر داعيةٌ لاختلاف البواطن، ومعناه تختلفون فيأخذ كل واحدٍ وجهًا مغايرًا للذي أخذ صاحبه؛ لأن في تقدم المصلّي على أخيه مظنة التكبر عليه فيفسد بذلك القلب فيكون أدعى للقطيعة، وعليه فإنّ المقصود بالوجه، إن تمّ حمله على العضو الخصوص، فالمخالفة إذا بمقتضى الصورة الإنسيّة، أو الصفة، أو جعل الأمام وراء، وإن تم حمله على عين الشخص

¹ ينظر: ابن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ): شرح صحيح البخاري لابن بطّال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط2، 1423هـ-2003م، (344/2).

² ينظر: القاضي عياض ابن موسى بن عياض بن عمرو البحصي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ): شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمّى إكمال المنعم بفوائد مسلم تحقيق: الدكتور بخيّ إسماعيل دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1419هـ-1998م، (346/2).

³ الترمذي: سنن الترمذي، كتاب أبواب الفن باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف حديث (2212) (495/4). حكم الألباني: صحيح.

⁴ البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام حديث (659). ومسلم صحيح مسلم كتاب الصلاة باب النهي عن سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما أحاديث (114/1، 115، 116).

فالمخالفة مقرونة المقصد... ويمكن أن يقصد بالمخالفة في الجزء فيثاب المسوي بالخير وغير المسوي بالشر¹.

ثم لا ينبغي أن ننسى أن قبلة المسلمين واحدة، ومن جميل دلالتها على وحدة الأمة أن قد اتفقت كلمة الأولين والآخرين في كتب الموروث الإسلامي على تسمية المسلمين بأهل القبلة، فدونك أبو حنيفة النعمان، رحمه الله تعالى، يقول مسميًا المسلمين أهل القبلة تحت ترجمته لأهل السنة والجماعة مبيّنًا من هم واعتقادهم: "...ألا تكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب..."²، والشافعي، رحمه الله تعالى، كذلك سمى المسلمين بذلك فقال، رحمه الله تعالى، في حق العاصي منهم: "...والحكم في أهل الإسلام متباين، لذلك قد يحل دم القاتل أو الزاني منهم، ولا يحل من أموالهما شيء..."³.

فالقبلة واحدة لجميع من يأتى بأمر ربه، عز وجل، بأن يوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض، فهو يولي وجهه قبل المسجد الحرام كي لا يكون للناس على المسلمين مَدْخَلًا أو حَجَّةً، وذلك شرع الله تعالى الذي يُعْبَدُ بما شرع، وعلى النحو الذي أراده، عز وجل، وكان لله، والحمد لله، كما أراد، جل في علاه، بأن يلتزم المسلمون بما أسلم له الرسول ﷺ، بهذه القبلة، فإن الله شرفه بإجابة دعوته فيها، فإنها قبلة حق لا قبلة هوى، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، فإن في لزومه ﷺ، وأُمَّتِهِ إياها انقطاع حجج المخالفين، وهو قول: الله تعالى: ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي دُومُوا على استقبال هذه القبلة حيث كنتم؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك، لم يكن للناس عليكم حجة، أي: موضع احتجاج⁴.

¹ ينظر: ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، (207/2).

² أبو حنيفة، النعمان بن ثابت بن مرزبان الكوفي (المتوفى: 150 هـ): الفقه الأكبر، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن اخميس، مكتبة الفرقان - الإمارات العربية، ط1، 1419 هـ - 1999 م، (ص: 76).

³ الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى 204 هـ): الأم، دار المعرفة - بيروت بدون طبعة، 1410 هـ / 1990 م، (238/4).

⁴ ينظر: أبو حفص النسفي، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد الحنفي (المتوفى: 537 هـ): التيسير في التفسير، تحقيق: ماهر أديب حبوش، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، أسطنبول - تركيا، ط1، 1440 هـ، (520/2).

وفي موضوع الصلاة، هناك محورية صلاة الجماعة، وهي جزئية بارزة في وحدة الصف المسلم، ألا وهي صلاة الجماعة، والجمع، والتراويح في رمضان، وإنما شرعت الجماعة عمومًا لأجل الاستشعار الدائم لوحدة الأمة والاصطفاف مقتدين بإمام واحد؛ ففي صلاة الجماعة والتراويح يأتي المسلمون باختلاف أماكنهم إلى مكان واحد في وقت واحد، يأتون بإمام واحد، ويصلون صلاة واحدة، تجاه قبلة واحدة، بهيئات واحدة، لرب واحد، تعالى في علاه.

ولمشروعية الجماعة حكم؛ منها انتظام قوام الألفة بين مقيمي الصلاة، ولذلك، شرعت الجوامع في المحال ليحدث التعاهد باللقاء في أزمنة الصلوات بين أهل الملحة الواحد من الجيران، ومن الحكم بأن يستتير الجاهل من العالم الذي يجهله من الأحكام، ومنها أن منازل الناس متباينة في العبادة، فتعم بركة الكامل على أهل النقص، فتكمل صلاة جميعهم¹.

ثالثًا: الزكاة

لقد افترض الله تعالى على المسلمين الذين بلغ مالهم النصاب، وحال عليه الحال، حصة مقدرة من هذا المال، تؤخذ منهم، وتصبح حقًا لمستحقيها²، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَّةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]، وفي كون الزكاة فرضًا من الله تعالى، وركنًا من أركان الإسلام، حدد الله تعالى مصارفها مفصلة؛ فهذا مدعاة إلى التفكر في آثارها على وحدة الأمة ولحمة الصف، إذ لم يوكل تحديد مقدارها إلى أحد من الخلق، وذلك لشبهة دخول الهوى، أو عصبية، أو ميل، أو شنان، فيكون

¹ ينظر: القسطلاني، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القتيبي المصري (المتوفى: 923هـ): لساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط7، 1323هـ، (24/2).

² ينظر: الراعي، عبد الكريم بن محمد القزويني (المتوفى: 623هـ): فتح العزيز بشرح الوجيز =الشرح الكبير، دار الفكر، (17/6). وينظر: البابرتي، محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي (المتوفى: 786هـ): العناية شرح الهداية، مطبوع بهامش: فتح القدير للكمال ابن الهمام، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (وصورتها دار الفكر، لبنان)، ط1، 1389هـ/1970م، (153/2).

المال عامل فرقةٍ وخلافٍ، بدلاً من أن يكون دافع وحدةٍ، فلا يتحقق التكافل المراد، وفي هذا حكمةٌ عظيمةٌ، ومثال ذلك: قال زياد بن الحارث الصدائي: "أتيت رسول الله ﷺ، فبايعته، وذكر حديثاً طويلاً، وفيه: فأتاه رجلٌ، فقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: إن الله لم يرَضَ بحكم نبيٍّ، ولا غيره في الصدقات، حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك"¹.

ولما كانت الزكاة في هذه المكانة في الإسلام كان إنكارها خروجاً من الدين بالضرورة يستوجب القتال والقتل، وهو السبب الذي لأجله انشرح صدر أبي بكرٍ الصديق في قتال مانعيها، وألقى عليهم تهمة المرتدين، وتابعه في ذلك عمر، رضوان الله عليه، وانبرم عليه إجماع الصحابة، رضي الله عنهم جميعاً².

وقد أثمرت هذه الفريضة العظيمة في أن وصل الحال بالمجتمع الاسلامي إلى رقيٍّ لم يُعهد قبله؛ بحيث برزت فيه وحدة الصف المسلم؛ فقد سدّت الزكاة ضرورات الفقراء وحاجاتهم، على عهودٍ إسلاميةٍ كثيرةٍ، بل أبلغ من ذلك، وقع زمن أن ولي خلافة المسلمين عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، ثلاثين شهراً، فقد كفّت الزكاة مصارفها وغيرها من المصارف، فما راح عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم، فيقول للعاملين على الزكاة: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى بماله يُرجع، يتذكر من يضعه فيهم فلا يجد، فيرجع بماله، وذلك أن الله تعالى أغنى على يد عمر بن عبد العزيز الناس³.

¹ السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني (المتوفى: 275هـ): سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود، والشرح «عون المعبود» لشرف الحق العظيم آبادي (المتوفى: 1329هـ) المطبعة الأنصارية بدهلي -الهند، 1443هـ، كتاب الزكاة باب من يعطي من الصدقة، وحد الغنى حديث 1630 (35/2).

² ينظر: النووي المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (203/1-204).

³ ينظر: ابن عبد الحكم عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع، أبو محمد المصري (المتوفى: 214هـ): سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، تحقيق: أحمد عبيد، عالم الكتب -بيروت -لبنان ط6، 1404هـ-1984م، (ص: 110/59).

وفي الزكاة طهارةً ونماءً لمال الغني ونفسه من الشح¹، ومواساةً وطهارةً وتركيةً وموانسةً لنفس الفقير².

رابعاً: رمضان

من كرم الله تعالى على الأمة أن عمّها بمواسم الخير، ومن هذه المواسم دخول شهر رمضان بإهلال هلاله بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، شهر الطاعات والقربات، بحيث ينعكس موضوع وحدة الأمة فيه من مستهلّه، فبلحظة رؤية عدلين لهلاله، تقوم على جميع المسلمين حجة صيامه وجوباً³، قال ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]، وهذا الترائي للهلال وترقبه في أقطار الإسلام على تباعدها يجمع بين منتزعيه وحدة الدين والعقيدة، وأداء هذه الشعيرة العظيمة، طواعيةً لأمر الله تعالى، واتباعاً لسنة النبي محمد ﷺ، وفي هذا قال ابن كثير: "إنه إيجاب حتم على من شهد استهلال رمضان؛ أي كان مقيماً في البلد حين دخل الشهر، وهو صحيح في بدنه، فعليه بالصوم لا محالة"⁴.

¹ ينظر: ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري (المتوفى: 974هـ): الفتح المبين بشرح الأربعين، تحقيق: أحمد جاسم محمد المحمد، قصي محمد نورس الحلاق، أبو حمزة أنور بن أبي بكر الشيشي الذاغستاني، دار المنهاج، جدة-المملكة العربية السعودية، ط1، 1428هـ-2008م، (ص: 104).

² ينظر: الكرمانلي، أبو القاسم محمود بن حمزة المتوفى بعد سنة (531هـ): لباب التفسير، التحقيق: أربع رسائل دكتوراة بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض: 1. ناصر بن سليمان العمر -من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة النساء- 1404هـ. 2. عبد الله بن حمد المنصور -من أول سورة المائدة إلى آخر سورة الإسراء- 1429هـ. 3. إبراهيم بن محمد بن حسن دومري -من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الصافات- 1429هـ. 4- إبراهيم بن علي بن ولي الحكمي -من أول سورة ص إلى آخر سورة الناس- 1429هـ، (ص: 918).

³ ينظر: مالك بن أنس، أبو عبد الله بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ): المدونة، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ-1994م، (267/1). وينظر: الشافعي: الأم، (263/1). وينظر: الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الحنفي (المتوفى: 578هـ): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، ط2، 1406هـ-1986م، (81/2). وينظر: ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي الجماعلي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: 620هـ): المغني، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط3، 1417هـ-1997م، (419/4).

⁴ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (503/1).

وفي رمضان روحانياتٌ غير موجودةٍ في غيره، وانعكاساتٌ لوحدة الأمة فريدةٌ ومميّزةٌ لهذا الشهر الفضيل،
ومن ذلك:

1. الصيام

إذ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] فكل من صدق عليه نداء الله تعالى في الآية يلزمه ما كتب عليه فيها، وهم في ذلك موحدون، والصيام مقصودٌ لذاته، وهذا المقصد يشمل المسلمين كافةً في مشارق الأرض ومغاربها؛ فهم يمسكون عن الطعام، والشهوة، والشراب، في أوقات محددة، والكل يتناول الإفطار متى غربت الشمس.
كما أن الصيام أيضا مقصودٌ لغيره، إذ يفضي بأهل الإيمان الذين خاطبهم ربهم في الآية إلى التقوى وهي المقصود الأسمى للصوم، وفي هذا المقصد ترى المسلمين يجتهدون في شهر الصبر على أن يتخلّقوا بأخلاق الصوم من ترك قول الزور والعمل به إلى سائر مكارم الأخلاق التي دعا إليها الرسول، ﷺ، في رمضان، وبالتالي يجد المسلمون أنفسهم قد تشابهوا في الأفعال إضافةً إلى هيئة الصيام العامة، وتشابهوا في العبادات، وهذا مدعاةٌ للتأليف بين القلوب.

2. قراءة القرآن والدعاء، والقنوت في رمضان

إن شهر رمضان هو شهر القرآن، وأمة القرآن أكثر ما تعنى بكتاب ربها في رمضان، وإذا ما اجتمعت الأمة على القرآن، فقد قطعت الشوط الأكبر في تأليف القلب واتحاد الكلمة، إذ سبق أن أورد الباحث في فصل فضل الوحدة، وذم الفرقة، أقوال كثيرٍ من أهل التفسير في أنّ حبل الله المأمورين بالاعتصام به هو القرآن الكريم.

ومن الأمور التي يجتمع عليها الناس في رمضان، كونه من مواطن استجابة الدعاء، رفع أكف الضراعة إلى الله، فيزداد فيه استغفار المستغفرين بالأسحار، وتصدع محاريب المسلمين في قنوتها بالدعاء للأمة أن يرحمها الله رحمةً عامّةً، وأن يوحد كلمتها، ويجمع شملها، ويسوق لها قائدًا ربانيًا تتصوي تحت لوائه.

3. الصدقات

كان أجود ما يجود النبي في شهر الصوم؛ ففي الحديث عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: "كان رسول الله ﷺ، أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ، حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة"¹.

وأمة محمد ﷺ، اقتدت برسولها الكريم الجواد، فيجود الناس بالصدقات في رمضان بطيب نفس، وفي إخراج الرجل أو المرأة كرمًا وطوعًا واختيارًا من خاصة ماله المحفوظ برهانًا وتعبيرًا عمليًا على شعور روح الجماعة بين المسلمين، وتجلي الوحدة بأسمى صورها بين أبناء الدين الواحد، وأن المسلم لا يعيش منعزلًا عن إخوانه المحتاجين، فرمضان محلٌّ للصدقة، وكثيرٌ من المسلمين قد أقت رمضان بأن يكون منتهى الحول لإخراج زكاة ماله طمعًا في الثواب المضاعف، وإن كان الأصل وجوب الصدقة ووجوب إخراجها عن اكتمال النصاب في رمضان أو غيره من الأشهر.

4. التسابق إلى تقديم الفطور للصائمين

إن سمة تقديم الفطور للصائمين في رمضان سمة بارزة جدًا لها أثرها في اللحمة الاجتماعية ووحدة أبناء الإسلام، وهو من مظاهر ترابط الصائمين المسلمين، ويتعزز هذا الترابط، حيث يكون اجتماع المسلمين في المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، فترى كثيرًا من المسلمين همهم تقديم الفطور للصائمين الآخرين لكونهم مسلمين صائمين ليس غير، مع أنه لا يعرفه جاهًا أو منصبًا أو حتى بالاسم المجرد، فيكون مجهولًا بالنسبة إلى من يدعوه للإفطار، وإنما دعاه للفطر فقط لأجل وحدة الدين والعقيدة وكسب أجر تفتير الصائم.

¹ البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث (6) وكتاب الصوم باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان حديث (1803).

5. التزاور وصلة الأرحام

إن رمضان بمثابة مكابح لتسارع الحياة وانشغال الناس عن صلة الرحم والتزاور فيما بينهم، فرمضان ترتيبٌ عمليّ وإعادة بلورة للبرنامج اليومي لأمة الإسلام، وفي أثناء إعادة الصياغة هذه يكون للتزاور، وصلة الرحم، والولائم حصة مقتطعة يتم ملاحظتها، خاصةً على موائد الطعام، وما بعده أو بعد التراويح.

6. دروس العلم وحلق الذكر

دروس العلم من أفضل ما يجتمع عليه المسلمون مقارنةً برمضان مع غيره؛ فترى المساجد قد نشطت فيها دروس العلم وحلق الذكر، وبركات الشهر الكريم يكثر عدد رواد المساجد، وتشذ همم الأئمة والدعاة بإعطاء الدروس خاصةً بعد العصر والفجر، والدعوة خارج المسجد خاصة بعد الفراغ من التراويح.

خامسًا: الحج

إن فريضة الحج كانت بتقدير الله ركنًا من أركان الإسلام العظيمة الخمسة، ومما يبرز فيها بروزًا واضحًا هو الحركة التوافقية الانسجامية للمسلمين، هذه الحركة التي تكفي لأن تكون سببًا في إسلام من كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، حركة الحجاج وطوافهم هي المنسك الذي هوت فيه الأفئدة، وهو سهلٌ على أبناء الإسلام الحنيف، سهلٌ على أتباع محمدٍ ﷺ، وأحبابه، وممتنعٌ على من ران على قلبه.

وفي هذا المنسك العظيم تتجلى وحدة الأمة باتصالها بأبي الأنبياء إبراهيم، عليه السلام؛ ففي الحج إحياءٌ لسنة إبراهيم التي ارتضاها الله تعالى لنبيه وخليله، عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم.

وتتعدد مظاهر الوحدة، وتتنوع، في مناسك الحج، ومن ذلك:

1. المساواة في الحج

الحج هو مؤتمر المسلمين الجامع، الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمةٍ إلا سمة الإسلام، عرايا من كل شيءٍ إلا من ثوبٍ غير مخيطٍ يستر العورات، ولا يميز فردًا

من فردٍ، ولا قبيلةً من قبيلةٍ، ولا عرقاً من عرقٍ، إنّ عقدة الإسلام هي وحدها العقدة التي تربط المسلمين عربهم بعجمهم، أبيضهم مع أسودهم، والانتساب للإسلام هو النسب الواحد، والصبغة الواحدة هي صبغة الإسلام وحدها. بهذا يقعد الدين سلوك أبناء الإسلام في ربوع الحج، على أصل المساواة وقاعدة الأمة الواحدة التي لا تفرقها طبقية، ولا تشتتها جنسية، ولا يؤثر فيها اختلاف اللغات لأن الإسلام بني على أساس من التصور الذي هدى البشرية إليه، أساس الوحدة¹.

2. اتحاد الزمان والمكان

في حجّ المسلمين بيت الله الحرام كل عام مرةً بأمر الله تعالى يوقن المسلم أن هذه المناسك لا يمكن لأي بشر أن يأتي بمثلها؛ فشرع الله لا مثل له، وهذه المناسك هي مناسك الملة الحنيفية التي هي وحي من الله على قدر من الدقة والروحانية العالية، والجميل في الحج أنه مقيّد زمانياً ومكانياً، وكل من في الصعيد متقيّد بالذي شرعه الله، تبارك وتعالى.

ومعاني الحج تتنوع وتتعدد لتنتهي كلها إلى أمرٍ واحدٍ هو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ووضوح وحدة الأمة واجتماع المسلمين بيّن في الحج؛ ففيه إفاضة الحاج، المشهد الذي يرستم عند قراءة قول ربنا، سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 199]

3. الإحرام والطواف والسعي:

عند ذكر الحج والبيت الحرام، لا بد من ذكر العبادة التي لا يمكن للمسلم أن يعبد ربه تعالى ويتقرب فيها إليه، إلا في ذلك المكان؛ ألا وهي الطواف والسعي، فالطواف والسعي يدلانك على الانسجام الذي يكون بين أفراد المجتمع المسلم، ولباس الإحرام يكون المشهد أبهى وأوضح في تعزيز مفهوم وحدة الأمة.

¹ ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، (31/1).

4. رمي الجمرات

وعند رمي الجمرات ترى المسلمين جميعهم في وقتٍ واحدٍ تركوا البيت العتيق وتوجهوا إلى رمي الجمرات في صعيدٍ آخر، امتثالاً لأمر ربهم، واقتداءً بسنة نبيهم ﷺ، طواعيةً لمناسك الحج، وبهذا الرمي يتحدون جميعاً في رجم الشيطان الذي شُغله الشاغل التفريق بين المسلمين.

5. اجتماع الحجيج يوم عرفة

من معاني الحج السامية، كونه سلوك الطريق الواضح الذي يوقف على المنفعة في الدين والدنيا¹، أما رأيت الحاج لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل ولا يخاصم، وهو في خير أيام السنة عند الله، والعمل فيه لا يساوي العمل في غيره، إلا رجلٌ خرج بماله ونفسه ولم يرجع بشيءٍ ففيه يقف الحاج بعرفة، في صعيدٍ واحدٍ لأداء منسكٍ واحدٍ بزي الإحرام الواحد، يدعون الله الواحد في وقتٍ واحدٍ.

ثم يكون النحر بعد صلاة العيد، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكِ وَأَنْحَرِ﴾ [الكوثر: 2]، وكل حاج يؤدي هذا النسك العظيم؛ بأن يقرب الهدى، ويذبح لله تعالى، فيكون الحاج معظمًا لشعائر الله، وما في الهدى، وإطعام الطعام في الحج إلا مظهر آخر من مظاهر روح الوحدة وصلابتها.

سادساً: الجهاد

إنَّ النصر الشافي لصدور قومٍ مؤمنين إنما هو مكرمةٌ في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن هناك نتائج عملية في الدنيا للجهاد في سبيل الله، وفي الآخرة ينتظر المجاهد مكسبٌ عظيمٌ جزاءً تحقق الوحدة التي أرادها الله تعالى، وهي المقصودة في ذاتها من أن يتخذ الله تعالى من الأمة شهداء، وكان الله للأمة نعم المولى ونعم النصير، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِرَسُولٍ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

¹ ينظر: أبو طالب (191/2).

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [الحج: 78].

ويتصدر موضوع الجهاد فاتحة هذه الآية، وفيها مواضيع جسام، وأمور عظام، منها: الحث والأمر بالاعتصام بحبل الله العظيم القدير، وكون أمة الإسلام شهداء على الناس، وأن الله تعالى هو مولى الأمة، فنعم المولى ونعم النصير، فهي مكارم جلها فخمة، ومناقب جزلة تعمل جميعها على توحيد الأمة بأصارة الإيمان ورباط المحبة، وتقودها إلى السؤدد والكرامة، لتسطر في عالمنا معالم العز والفخر.

إن مشهد المسلمين العام يجب وجوباً شرعياً ربانياً مؤكداً في سنة حبيبهِ ﷺ، أن يكون متحدًا، وهذا المشهد المهيّب مدعاةً لحب الله تعالى، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُورٌ﴾ [الصف: 4]، فوجه الشبه الذي يرسم من التشبيه في الآية الكريمة إنما هو التراص في الصفوف، والمسؤول عن الاصطفاف، وبناءً هذا البنيان المتين الذي لن يسطع العدو أن يظهره، أو يستطيع له نقبًا، هم المسلمون أنفسهم على تقدير أن المفعول مضمّر فيكون التقدير: يصفون أنفسهم صفًا، ولا يجوز شرعًا الخروج عن الصف¹.

وكان النبي ﷺ، إذا عزم الأمر، صف أصحابه، وبوأهم في مقاعدهم، بحيث يطرح تواكل بعضهم على بعضٍ جانبا، بل تسمي كل طائفة منهم مهمةً بوظيفتها وقائمةً على مركزها، وهكذا تتجج الأعمال، ويُبنى الكمال². وإن صف القتال مثل صف الصلاة، وقد أوصى الله تعالى المؤمنين بالثبات في صف القتال ووعدهم الأجر الجزيل³، حتى غير المقتدر على الجهاد عليه أن يقوم بخدمة المجاهدين؛ فالمصاب هو مصاب المسلمين

¹ ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (81/18).

² ينظر: السعدي: تيسير الكريم الرحمن مؤسسة الرسالة، (ص: 858).

³ ينظر: مقاتل: تفسير مقاتل بن سليمان، (97/2).

جميعاً، وذمتهم واحدة وعدوهم واحد، قال الغزالي، رحمه الله تعالى: "فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمرة¹".

ولا يلوذ أمام وحدة الصف ولحمته إلا متسللاً منافقاً قد شهد الله تعالى عليه بالنفاق، وهو ظاهر في قول الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]

والملاوذة؛ بأن يتستر بعضهم ببعض حتى يخرج، أو بأن يلوذ بمن يخرج بالإذن إذا رأى أنه من اتباعه، والنصب على الحال من ضمير يتسللون أي ملاوذين، أو على المصدرية مؤكداً بفعلٍ مضمر، فيكون التقدير يلاوذون لواءاً، وهذا عامٌ للتسلل من صفوف الجهاد، وكذلك من صفوف الصلاة أيام الجمع، وغيرهما، من مواطن الاجتماع الحق، فكان يثقل على أهل النفاق خطبة الرسول ﷺ يوم الجمعة فيلوذون ببعض الصحابة، أو ببعض المنافقين أمثالهم فيخرجون من المسجد في استخفاءٍ من غير إذن، فتوعددهم الله عز وجل في هذه الآية، يخالفون أمره بترك سمته، ويذهبون بخلاف مقتضاه، والضمير عائد لله لأن الأمر له على الحقيقة².

المطلب الثالث: وحدة التحاكم إلى الله والرسول في دعوة النبي محمد ﷺ

إن وحدة التحاكم إلى الله ورسوله هي الدواء الشافي لداء الاختلاف والفرقة؛ فالمسلم يبغض بجبلته الفشل ويحب نصر الله، وعليه، فإنه من اللازم أن نعلم السنة الكونية -سبباً ونتيجة- المتصلة بالوحدة أو عدمها مع النصر أو الفشل، وذلك في قول الذي نصر رسوله، ﷺ، وأصحابه الغر الميامين المتحدين قلباً

¹ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (المتوفى: 505هـ): إحياء علوم الدين دار المعرفة -بيروت تاريخ النشر بالشاملة: 8 ذو الحجة 1431، (87/3).

² ينظر: أبو الفداء الخلو، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (المتوفى 1127هـ): روح البيان، دار الفكر -بيروت، تاريخ النشر بالشاملة: 1431 (185/6).

وقالبا: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، فالنتيجة المحتملة المفصلة بالفشل والضعف والجبن وذهاب الريح هي نتيجة اختلاف القلوب، والتشتت في الأمر¹.

والقول في المسألة فيه بيان المزد في حال وجود إشكال، وهو قضاء من الله تعالى في كثير من الآيات لنحتكم إليه وإلى الرسول ﷺ، فيما شجر بين المسلمين، إذ يقول، إذ يقول، جل في علاه في: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، ويقول أيضًا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

ويتضح اتحاد المعنى، في هذه الآيات، مع غزارته وثروته، وما تحمله الآيات من عظيم قدر، وجليل نفع، مع زيادة في الأولى بأولي الأمر، إذ إن قول الله، جلّ وعلا: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ}، معناه: اختلفتم، {فِي شَيْءٍ} في أمور الدين، والتنازع: أن تختلف الآراء، وأصله من النزاع، فكأن المتنازعين يتمانعان ويتجادبان، {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}، بمعنى: كتاب الله² وإلى رسوله³ ما دام حيًا، وبعد وفاته ﷺ، إلى سنته، والرد إلى الكتاب والسنة واجب إن وجد فيهما الجواب فإن لم يوجد فسيبيله الاجتهاد، وقيل: الرد إلى الله تعالى والرسول أن يقول لما لا يعلم: الله ورسوله أعلم. {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ} أي: الرد إلى الله والرسول، {خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} أي: أحسن مآلاً وعاقبةً.

¹ ينظر: الطبري: جامع البيان، (214/11).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (187/7).

³ ينظر: الطبري: جامع البيان، (606/20).

والرد إلى الله ورسوله يكون فيما وقع الخلاف فيه، والتنازع في أي أمر من الخصومات، فالحكم يؤول إلى النبي ﷺ، وإياكم أن تقدّموا حكومة غيره على حكومته، كقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}، وما تنازعتم به من تأويل قرآنٍ واشتبه عليكم فالزموا في بيانه المحكم من الكتاب والظاهر من السنة، وبالذي وقع بينكم التنازع فيه من العلم الذي لا يتصل بتكليفكم ولا سبيل لكم إلى العلم به، فلتقولوا: الله أعلم¹.

وما زال عقب ربوع هذه الآية الكريمة يطفي على المسلمين سمات الوحدة ألوًا من المفاهيم التي من شأنها تقليص التنازع والفجوات بين أطراف المسلمين وتوحيد صفوفهم، والآن، نستفتح معاني إضافية من مفاتيح الغيب للرازي، إذ يحص المسألة تمحيصًا راقيًا مستوعبًا، قال الرازي: "لما أمر تعالى الرعاة والولاة بالعدل في الرعية أمر الرعية بطاعة الولاة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ}، ولهذا، فحق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإن أتى بهذا لزم على الرعية السمع والطاعة... والطاعة ليست متفقة الإرادة بل موافقة الأمر"².

ومما تعالجه هذه الآية الكريمة الشريفة هو أنها مشتملة على أكثر علم أصول الفقه: القرآن والسنة والإجماع والقياس، والآية مقعدة الأصول الأربعة بالترتيب المعهود؛ فالكتاب والسنة قد وقعت الإشارة لهما بـ: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول. والفائدة في هذا تبين الداليتين؛ فالكتاب يشير إلى أوامر الله، وبعده يعلم منه أوامر الرسول لا محالة، والسنة تشير إلى أمر النبي، ومن ثم يعلم منه أمر الله لا محالة، فلزم بما ذكر أن: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول دليل على إيجاب اتباع الكتاب والسنة.

ومما تعالجه الآية الكريمة موضوع طاعة أولي الأمر، وإجماع الأمة بعد مصدري التشريع الأولين، فالفائدة في ذلك بيان الداليتين، فالكتاب يدل على أمر الله، ثم نعلم منه أمر الرسول لا محالة، والسنة تدل على أمر الرسول، ثم نعلم منه أمر الله لا محالة، فثبت بما ذكرناه أن الآية: تدل على وجوب متابعة الكتاب والسنة.

¹ ينظر: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، (325/9).

² الرازي: مفاتيح الغيب، (112/10).

وأولي الأمر منكم ، يفيد على أنَّ حجية إجماع الأمة، والشاهد على هذا أنه عز وجل أمر بطاعة أولي الأمر على نحو الجزم في الآية، والذي يأمر عز وجل بالطاعة له على سبيل القطع والجزم لا بد في عصمة عن الخطأ، فلو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بإتيان هذا الخطأ، والخطأ منهى عنه، لكونه خطأً، فهذا يؤول إلى اتحاد الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وهذا من المحال، فالثابت أنَّ الله عز وجل أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل القطع، وثابت أنَّ كل من أمر الله بطاعته على هذه سبيل لزم أن يكون عن الخطأ معصوماً، فثبت إذاً على القطع بأنَّ أولي الأمر المذكورين في الآية لا بد أن يكونوا معصومين، وهؤلاء المعصومون إما أن يكونوا بعض الأمة أو مجموع الأمة، وليس جائزاً أن يكون البعض؛ لأن الله عز وجل فرض الطاعة لأولي الأمر في هذه الآية على سبيل القطع، وإيجاب الطاعة بالقطع مرهون بكوننا عالمين بهم قادرين على التوصل إليهم والاستفادة منهم، ومعلوم بالضرورة أننا في هذا الزمان عاجزون عن تبين الإمام المعصوم، وغير قادرين بالوصول إليهم، واستفادة العلم والدين منهم ضرب من المحال، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر المسلمين بطاعته ليسوا طائفة من الأمة، ولا بعضاً من طوائفهم. ولما بطل هذا لزم أن يكون هذا المعصوم الذي هو المقصود بقول الله عز وجل {وأولي الأمر} أهل الحل والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأنَّ إجماع الأمة حجة¹.

والثاني: المراد أمراء السرايا، قال سعيد بن جبیر: نزلت هذه الآية في عبد الله بن حذافة السهمي إذ بعثه النبي ﷺ، أميراً على سرية، ويحتمل أن يكون أولو الأمر لهم وجوه أخرى غير ما سبق، أحدها: أن المراد من أولي الأمر الخلفاء الراشدون، والثاني: المراد الأمراء²، وخصوصاً أمراء السرايا، وثالثها: المراد العلماء الذين يفتون في الأحكام الشرعية، ويعلمون الناس دينهم³.

¹ الرازي: مفاتيح الغيب، (112/10).

² ينظر: الطبري: جامع البيان، (7174) .

³ الرازي: مفاتيح الغيب، (112/10 - 116).

وضابط الطاعة الذي بات مطلبًا للباحثين، لأجل ما خُلط في زماننا، فهو الطاعة بالمعروف، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، عز وجل؛ فعند القرطبي، رحمه الله: "وأما طاعة السلطان فتجب كان الله فيه طاعة، ولا تجب فيما كان الله فيه معصية، ولذلك قلنا: إن ولاية زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم، ويجب الغزو معهم متى غزوا، والحكم من قبلهم، وتولية الإمامة والحسبة، وإقامة ذلك على وجه الشريعة. وإن صلوا بنا وكانوا فسقةً من جهة المعاصي جازت الصلاة معهم، وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أن يخافوا فيصلى معهم تقية وتعاد الصلاة"¹، ويشهد لهذا الفهم ما رواه البخاري ومسلم؛ ففي الصحيحين عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: أنزل {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر} في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي؛ إذ بعثه النبي ﷺ، في سرية².

وكان من خلق عبد الله بن حذافة دعايةً معلومةً، ومن دعايته أن النبي ﷺ، ولأه على سرية فأمرهم بأن يجمعوا حطبًا، ويوقدوا النار، وحينما اتقدت أمرهم بتقحمها، فقال لهم: ألم يأمركم النبي ﷺ، بطاعتي؟! وقال: "من أطاع أميري فقد أطاعني؟"، فقالوا: ما آمنا بالله، واتبعنا الرسول إلا لننجو من النار! فصوب النبي ﷺ، فعلهم، بأنه، وبأن³.

الرد في أولي الأمر يكون برد المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والعلماء الربانيون هم أهل المعرفة في حيثيات الرد إلى القرآن والسنة، ويشهد لهذا على أن سؤال العلماء واجبًا، وامتنثال فتواهم ملزمًا، وما فتئ الناس بخير ما وقرروا السلطان وأهل العلم، فإذا عظموا هذين أصلح الله معاشهم ومعادهم، وإذا استخفوا بهم أفسدوا الدنيا والآخرة⁴.

¹ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (5/259).

² البخاري: صحيح البخاري، (4/1674) باب: قوله: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} حديث: (4308). ومسلم: صحيح مسلم، (6/13) باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية حديث: (18341835).

³ ينظر: الولولي، محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي: البحر المحيط الشجاع في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، دار ابن الجوزي، ط1، (1436هـ)، (49/32).

⁴ ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (5/260).

وقد يُستشكّل على المسلم الصادق الغيور على الدين أنّه لا خليفة في زماننا؛ فالقول إنّ الموضوع لم يمت؛ إنّ العلماء موجودون وهم الشقّ الأعظم في أولى الأمر، إنّ عليهم يترتب فهم الوحيين، وفصل ما شجر بين أبناء المسلمين، وسبب التوسع في هذا الشأن لكونه مظنة وقوع الخطأ، إنّ حاك المتأمرون من سحرة الإعلام الفاسد حول هذا المبدأ أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان، فضلّوا وأضلّوا.

المبحث الثالث: الوحدة المتمثلة في ذات النبي محمد ﷺ

المطلب الأول: الوحدة المتمثلة في وجوب الإيمان، والافتداء به عليه السلام

قال الله، تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ [النساء: 136]

وفي تبیین فرض الله، تبارك وتعالى، ومتابعة سنة رسوله ﷺ، يرى الشافعي، رحمه الله عليه أن الله تعالى أنزل نبيه من دينه وفرضه وكتابه المنزل الذي أبان عزّ وعلا؛ بأن جعله علماً لدينه، بالذي افترض من طاعته، وحرم من مخالفته، وأشاد من فضائله، وقد قرن من الإيمان بنبيه مع الإيمان به، فيقول عزّ وجل: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَوَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ءَإِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ءَسُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، وكذا يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، فقضى اكتمال ابتداء الإيمان، الذي ما دونه تبع له (الإيمان بالله ثم برسوله)، فلو صدّق عبد به ولم يؤمن بنبيه، لم يستحق اسم كمال الإيمان أبداً، حتى يؤمن بالنبي ﷺ، معه¹.

وإن سئل، إرسال الرسل مفاده مصالح العباد، وهم مأمورون بالرحمة والشفقة، وجاء خاتم الأنبياء بالسيف وقتل الأنفس وسفك الدماء، فكان مخالفاً للذي أرسل به عيسى وموسى، فتزِيل عن حكمهما في الرسالة لاختلافهم في السيرة، والجواب عنه بثلاثة أوجه:

أولها: الله عزّ وجلّ أرسل كل رسول بحسب حال زمانه؛ فمنهم من بعثه بالسيف؛ لأن السيف أنفع، ومنهم من بعثه باللين لما كان اللين أنجع، كما باين بين معجزاتهم بحسب أزمانهم وما اشتهر بينهم، فبعث موسى

¹ ينظر: الشافعي: تفسير الشافعي، (676/2).

بالعصا في زمان السحر، وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطب، وبعث محمدًا بالقرآن في زمان الفصاحة.

والوجه الثاني: أن السيف لمّا يكن لطلب الخير كان عظيم الخير، واللين إذا كان مع إقرار الباطل كان شرًّا، ذلك أن الشرع موضوعٌ لإقرار الفضائل الربانية والحقوق الإلهية، ولهذا، أتى الشرع بالقتل والحدود ليبيح معه الخير ويترك به الشر؛ لأن الطبائع الأثرة يكفها الترهيب فقط، فيكون قهرها أنفع في طواعيتها من الترغيب، وكانت العرب أعمّ أهل زمانهم ظلمًا وطغيانًا حينها؛ لكثرة عددهم وشدة بأسهم، ولهذا السيف فيهم كان أنفع من التلطّف.

والوجه الثالث: أنه لم يكن في قتاله بالسيف بدعًا من الرسل، ولم يكن الأول في من أثنى بأعداء الله عزّ وجل، ومن قبله إبراهيم، عليه السلام، وقف مجاهدًا للملوك الأربعة الذين ساروا إلى بلاد الجزيرة للغيروا على أهلها، وقتلهم حتى انتصر عليهم بأحزابه وأتباعه، يوشع بن نون قاتل عددًا من سلاطين الشام وقتلهم، وأيضًا جاهد داود في الأرض المباركة، وجاهد من أهلها من جاهد، والنبي، ﷺ، كان رحيماً ودوداً قاتل من وقف في وجه البشر والخير¹.

ولمّا يعرف المُتَّبِع عظيم قدر من يتبع يكون ذلك أدعى بقبول الامتثال وأمثل في الاتّباع، وقد عرفنا الله تعالى على نبيّه ﷺ بأنّه كان خير خلقه ﷺ المصطفى لوجهه، المفضل على كل الخلق أجمعين، بافتتاح رحمته، واختتام رسالته، وأشمل ما بعث به نبيّ، العالي ذكره مع في دار المعاش، والشفيع الشافع في دِلر المعاد، أزكى خلق الله نفساً، وأشملهم لجميع خصال الأخلاق المرضية في الدنيا والدين، وأفضلهم نسباً ومنزلاً، محمد عبده ونبيّه، النعمة الخاصة بالمؤمنين، العامة النفع للعالمين، فقال الله تعالى، واصفاً شخصه وقلبه ﷺ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}².

¹ ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): أعلام النبوة، دار ومكتبة الهلال - بيروت، 1409هـ، (ص: 159).

² ينظر: الشافعي: تفسير الشافعي، (965/2).

إن من المسلمات في ديننا الحنيف أن الرسول ﷺ، هو أفضل الخلق، وخير من دبّ على الأرض وعرج إلى السماء¹؛ لأن وجود هيئة عليا وجهة يصار إليها في امتثال الأمر والانتهاه بالنهي الذي يتقرر فيها لهو أمر توصّل إليه أهل الدنيا لسيرورة صحيحة لدنياهم ومعاشهم حتى بات الأمر من المسلمات البديهية من لدن الهيئات العالمية والدولية نزولاً إلى أصغر جمعية أو شركة؛ فالالتزام بالطاعة هو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور في فلكه كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته، وفناء ماهيتها؛ ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسؤولية، وإذا عدمت المسؤولية، فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذٍ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضاً، وطبقاً لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي².

وقد قضى الله لهذه الأمة اتباع الرسول وطاعته، وجعلها ركناً لوحدة الأمة، فإن الأمر بطاعته، ﷺ، أكثر من أن يحصى في مطلبٍ أو مبحثٍ أو حتى فصلٍ، بل فيه ألفت الكتب، وتعددت الفصول، وحق لها ذلك، وفي هذا السياق يورد الباحث قول الله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: 132)، فهذا أمرٌ مباشرٌ من الرحمن الرحيم، جل في علاه، في وجوب الطاعة، ومن ثم يقول: الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ أَلَدَاوَةً وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة: 29-19).

¹ ينظر: أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى 241هـ): أصول السنة لأحمد بن حنبل، دار المنار - السعودية، ط1، 1411هـ، (ص35). و ينظر: أحمد بن حنبل: العقيدة رواية أبي بكر الخلال، (ص126).

² دراز: دستور الأخلاق في القرآن، (ص21).

فالتحذير في الآية جاء بعد الأمر بالطاعة لله تعالى والطاعة للرسول ﷺ، فكان التحذير من عدم طاعتها، وبالتالي، تقع في ما يريده الشيطان في سياق الآية السابقة التي أوردتها بأن يحتال عليكم؛ لأنه سيحاول أن يأتكم من كل مدخل¹، فتبصح ضحية للعداوة والبغضاء وهي من معاول هدم الوحدة في مجتمع الاسلام.

ورسول الله ﷺ، هو المرجع الأول، والقُدوة الأمثل، في الفصل بين الناس، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: 31-32]

والقسمة في ذلك تكون ثنائية لا ثالث لها؛ إما الطاعة لله والرسول، وإما الحكم بالتولي عن ذلك ليكون من الكافرين، فهو ترغيب شديد وترهيب ووعيد أكيد، وقد احتج الشافعي، رحمه الله، بالآيات التي جاءت في الكتاب، على فرضية الطاعة لله للرسول ﷺ².

إنّ الاتباع مرهون بأن توافق المتبوع، وألا يختلفوا فما يلبثوا إلا أن صاروا فرقا، فكان أمر اتباعه يقول: عظموه ﷺ، في الأمر، واحفظوا الأدب في خدمته، والزموا طاعته مع مراعاة الوقار والهيبة، إذ يقول عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63]، ففلاح الدارين في اتباع السنة، وشقاوة الدارين في مخالفة السنة³.

ومن تمام الخلق العظيم ما وصفه الله تعالى في نبيه بأن قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128]، وقال تعالى:

¹ الشعراوي تفسير الشعراوي (6/3385).

² ينظر: الشافعي: تفسير الإمام الشافعي، (1/492).

³ ينظر: القشيري: لطائف الإشارات، (623624/2).

﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اَسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ اِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا اَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَاَنَّهُۥٓ اِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24]

فالحياة كلها في الاستجابة لله وللرسول؛ حياة الدنيا والآخرة، وحياة القلب، وحياة الجسد، وحياة الروح، فالحياة تكون بالذكر، والشرف والثناء الحسن في هذه الدنيا، و في الحياة الآخرة الدائمة، وإن متم وهلكتم جسداً فيما يدعوكم إليه، يكون لكم في الآخرة حياة الأبد¹، ويشهد لهذه المعاني قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [٨٠] وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: 80-81]

فهنا الموتى هم موتى القلوب²، والإيمان بقرينة سياق الآيات وقرينة القرآن بالقرآن أبرزها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، ﴿وَنَضْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، ﴿وَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوهُ﴾ [التوبة: 87]، ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: 108]، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: 70]، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: 21].

فالاستجابة لله وللرسول ﷺ، مدعاة للحياة التي يريدها الله تعالى، ومن ثمراتها ودواعيها الوحدة ولحمة الصف بين ربوع المسلمين.

¹ ينظر: الماتريدي: تأويلات أهل السنة، (5/177).

² الرازي: مفاتيح الغيب، (2/294).

المطلب الثاني: الوحدة المتمثلة في حب النبي محمد ﷺ لأمته

إِنَّ أَفْضَلَ مِنْ وَصْفِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ خَالِقُ هَذَا الْقَلْبِ، رَبُّ الْعَالَمِينَ إِذْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128].

"عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ"، أي عزيز عليه عننتكم، والعنت لقاء الشدة، {حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ}، أي حريص على إيمانكم¹، والله تعالى هو أحسن من وصف، وأبدع من رصف، فكان العمق في ترسيخ إثبات الحب لرسول الله ﷺ، لأمته، فبداية هو منكم تعرفون نسبه وصدقه ورفعته التي بها تكون رفعتكم وعزه عزكم².

ومن محبة النبي، عليه السلام، لأمته أنه لن ينساها يوم القيامة، وقد ادخر لها شفاعته، راجياً أن تكون أمته أكثر أهل الجنة، فيستنفذ جهده لحمايتها من النار يوم القيامة، فهو يسجد تحت العرش داعياً راجياً رب العالمين أن أمتي أمتي في ذلك الموقف، والمحامد التي سيفتحها الله على نبينا محمد ﷺ سوف تكون مقدمة الدعوة التي اختبأها³ ﷺ لأمته عامة ولم يتعجل بها في الدنيا⁴؛ فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، وإنّ للأمة بهذا الموقف لأوفر الحظ والنصيب من أثر محبته لها، وهي محفوظة بالخير الذي يعمها به جزاء شفاعته لهم ﷺ.

ومن محبته ﷺ لأمته ما أقسم به لأمتنا عائشة أنه يدعو لأمته في كل صلاة؛ فقد أسمعها من دعائه لها حين رأت طيب نفسٍ منه ﷺ وطلبت أن يدعو لها، فعن عائشة رضي الله عنها - أنها، قالت: "لما رأيت من

¹ الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، (477/2).

² ينظر: الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، (2/424).

³ ينظر: البخاري: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة حديث (5945) عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعاً لأمتي في الآخرة). وينظر: مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعه لأمته أحاديث (334-345) عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة يدعوها، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة».

⁴ المصدر نفسه، كتاب الإيمان باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعه لأمته (131/1) حديث رقم (338). قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإنني اختبأت دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً».

النبي ﷺ طيب نفسٍ، قلت: يا رسول الله، ادع الله لي، فقال "اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسرت وما أعلنت، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك، قال لها رسول الله ﷺ أيسرك دعائي؟ فقالت: وما لي لا يسرنى دعاؤك؟ فقال ﷺ والله إنها لدعائي لأمتي في كل صلاة"¹.

وقد كان ﷺ دائم البشر²، ويزداد فرحًا وسرورًا عندما تتال أُمته البركة عند الصلاة عليه؛ فقد رُوي في وجهه يومًا من الأيام والبشرى في الوجه الكريم، لاحظته الصحابة الكرام، كما قال أبو طلحة مخبرًا أن رسول الله ﷺ جاء ذات يومٍ والبشرى في وجهه، فقلنا: إنا لنرى البشرى في وجهك، فقال: إنه أتاني الملك، فقال: يا محمد، إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحدٌ إلا صليت عليه عشرًا، ولا يسلم عليك أحدٌ، إلا سلمت عليه عشرًا"³.

المطلب الثالث: حرصه ﷺ على الأمة وبكائه لأجلها

إنَّ اللسان في لحظات الانقطاع من الدنيا والإقبال على الآخرة ليكون أصدق ما يكون، كمغرفةٍ لما في القلب، وإنَّ لسان النبي ﷺ كان موطئًا لقلبه في تلكم اللحظة، فكان ﷺ على العهد داعيًا للأمة قائلاً بعدما دمعت عيناه الشريفتين وتشهد ورحب بالصحابة: حياكم الله، رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، نصركم الله، نفعمكم الله، هداكم الله، وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم... ومن غاب عني من أصحابي، فأبلغوه عني السلام، ومن دخل معكم في ديني

¹ ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن مغبذ التميمي الدارمي البُستي (المتوفى: 354هـ): الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ-1988م، (48/16) حديث (7111). وأورده الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري (المتوفى: 1420هـ) في: صحيح موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ-2002م، (365/2) حديث (1875).

² الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ): الشمائل المحمدية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن، (ص: 24). حكم الألباني: صحيح.

³ النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: 303هـ): المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ط2، 1406هـ، (44/3). حكم الألباني حسن.

من إخواني، فأبلغوه عني السلام، وإني أشهدكم أنني قد سلمت على من يتبعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة¹.

كما اهتم على الدعاء لأُمته وبكائه شفقةً عليهم في تلاوته لآيات القرآن الكريم؛ فمن ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص: "أن النبي ﷺ تلا قول، الله عز وجل، في إبراهيم: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي}، وقال عيسى، عليه السلام: {إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فرفع يديه، وقال: اللهم، أمتي أمتي، وبكى، فقال الله، عز وجل، يا جبريل، اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك"².

هذا هو حال قلب الرسول الطاهر ﷺ في أقواله وأفعاله ودعائه ومختلف أحواله، فما كان من القلب الطاهر المطهر إلا أن بات أكثر دعائه بتوفيق ربه، جل وعلا، ورحمته لأُمته³.

¹ ينظر: البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف (المتوفى: 292هـ): مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (ج1-9)، عادل بن سعد (ج10-17)، صبري عبد الخالق الشافعي، (ج18) مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، (394/5). وينظر: ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى 852هـ): المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، المحقق: مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط1 من المجلد 1-11: 1419هـ-1998م من المجلد 12-18: 1420هـ-2000م (538/17).

² مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب دعاء النبي ﷺ لأُمته وبكائه شفقة عليهم حديث (346).

³ ينظر: ابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، (2/359). (في تفسير قول الله تعالى: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}).

الفصل الخامس

دعوى توحيد الأديان (الديانة الإبراهيمية نموذجًا)

المبحث الأول: نشأة فكرة دعوى توحيد الأديان (الديانة الإبراهيمية)

المطلب الأول: فكرة توحيد الأديان

إنَّ أخطر شيء في دين الله تعالى على الإطلاق، وأكبر المحرّمات هو التّقوّل على الله بغير الحق، قال الله

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ

يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 33]

قال ابن القيم: "وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات،

بل جعله في المرتبة العليا منها... فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم تنى بما هو

أشدّ تحريمًا منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ريع بما

هو أشدّ تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم¹.

فالقول على الله بغير علم كان أشدّ المحرّمات؛ لأنه تجفيف لمنابع الدين، ومنه يأتي التحريف والتبديل لدين

الله الحق، وبه يكون تحليل الحرام وتحريم الحلال، ومنه تأتي الدعوات الهدّامة لدعوى توحيد الأديان، فتعادي

من وإلى الله وتوالي من عادى الله عزّ وجلّ وتحبّ ما أبغضه وتبغض ما أحبه وتصفه تعالى بما لا يليق به

في ذاته وصفاته وأفعاله.

إن الصراع بين الحق والباطل صراع قديم أزلي أبدي فهو منذ بدء الخليقة قائم وإلى أن يرث الله الأرض ومن

عليها باق، ومن أخطر مكائد الشيطان وأعوانه من شياطين الإنس على أمة الحق، أمة الإسلام، هي الحرب

الفكرية العقائدية، فهي أعتى من الحروب بالأسلحة، ويتقرّر ذلك بالنظر إلى ما تحقّقه كل من الحريين، فتجد

¹ ابن القيم، إعلام الموقعين، (31/1).

أنَّ الحرب الفكرية تؤتي أكلها المسموم في أبناء المسلمين أكثر بكثير من نظيرتها التي تستخدم السلاح والمقارعة بالحرب.

ولمَّا أدرك ذلك أعداء الإسلام نشأت دعوة توحيد الأديان منذ فجر دعوة النبي ﷺ فقد قال قتادة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكَفُّوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعَالُونَ﴾ [البقرة: 42]

"ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام".¹

ذكر المفسرون أن رؤوس الكفر في مكة أتوا النبي ﷺ أوائل الدعوة بهذه الدعوى، فقد لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه؛ وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك.²

فكان التوجيه الربّاني لرسول الدين الحق ﷺ بأن أنزل عليه سورة قل يا أيها الكافرون كاملة.

والغرض من هذه الدعوات صرف المسلمين عن دينهم وتحريف عقيدتهم، وتبديل ما أنزل الله تعالى، وفي العصر الحديث برزت دعوات لحرف المسلمين عن مسارهم الصحيح ودينهم القويم، ومن هذه الدعوات دعوى الفيلسوف الراهب رايموندوس لويلس³، الذي عدّ من أوائل من دعا إلى تصويب جميع صور العبادات والأديان بهدف صهر المسلمين في النصرانية، حيث أكد لويل أن تحويل المسلمين للمسيحية يجب أن يكون عبر الدعوة لا بالقوة العسكرية، وقد حقق بعض أهدافه أخيراً في تعليم اللغات في الجامعات الكبرى، عندما أمر

¹ السمرقندي، بحر العلوم، (48/1).

² ينظر: الطبري، جامع البيان، (662/24). وينظر: الماوردي، النكت والعيون، (357/6). وينظر: الواحدي، التفسير البسيط، (390/24). وينظر: البغوي، معالم التنزيل، (317/5).

³ هو فيلسوف كاتالوني، من أسرة ميسورة الحال. أولع بالشعر، ثم انضم إلى رهبنة الفرنسيسكان. انكب على دراسة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، قاصداً دعوة المسلمين إلى المسيحية. سافر من أجل ذلك إلى شمال إفريقيا غير مرة، ولقي حقه هناك. حاضر في باريس، وممر بمونبلييه ومايورقا. حاول في مؤلفاته، وخاصة «الفن الأكبر»، أن يدافع عن المسيحية ضد الإسلام وضد فلسفة ابن رشد. كان ذا نزعة صوفية عميقة، وله منهج رمزي دقيق. من الموسوعة العربية الميسرة، لول، رامون، 1965.

مجمع فيينا بإنشاء كراسي لتدريس العبرية والعربية والكلدانية (الآرامية) في جامعات بولونيا وأكسفورد وباريس وسلامنكا وفي المحكمة البابوية أيضًا.¹

المطلب الثاني: نشأة الدعوة إلى الديانة الإبراهيمية

من الحروب الفكرية التي ابتلي فيها المسلمون في هذا العصر حرب ملمسها ناعم وريحها طيب إلا أنها هي السم القاتل عينه، فهي قلب لدين الله وتفتتت للأمة الإسلامية وصهر لمعتقداتها في بونقة أصحاب دعاوى توحيد الأديان.

لقد خلصت الدعاوى إلى توحيد الأديان مؤخرًا إلى اسم معسول إلا أن في طياته كل خبث ولؤم، فالغرب ومن يدير دراساته الشرق أوسطية يعتنون أيما عناية بالأسماء التي من شأنها التمويه عن حقيقة المسمى، فأطلّ الغرب الحاقد على الإسلام بإسم الديانة الإبراهيمية، وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ومنزلته محفوظة بين ربوع المسلمين، إلا أن هذه الدعاوى في حقيقتها دعاوى هدامة تروج وتخدم مآرب الغرب الخطيرة دينيا وسياسيًا.

¹ Churchill, Leigh (2004). The Age of Knights & Friars, Popes & Reformers. Milton Keynes: Authentic Media (ردمك 1-84227-279-9). 9781842272794, (p. 190).

وفي الدعوة باسم الإبراهيمية تحديدا فيُعد المستشرق لويس ماسينيون¹ أول من دعا إليها بقوة، في كتاباته عن العلاج تحديدا وتأثره به وتكرار ما كرره عند موته من القرآن وعن طريق تدريسه في جامعة القاهرة، وإدارته لمجلة العالم الإسلامي عام 1919م.²

وقد نسب الى جمال الدين الأفغاني أنه ممن يدعون بهذه الدعوة من خلال قوله في خاطراته: "... ثم رجعت لأهل جُزَمِ الأرض وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين)، فأخذت الأديان الثلاثة، وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد، منصرفاً عن كل تقيد، مطلقاً للعقل سراحه؛ فوجدت بعد كل بحثٍ وتنقيبٍ وإمعان، أنَّ الأديان الثلاثة: الموسوية، والعيسوية، والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية، وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وأنه بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة"³.

ولا زالت تلك الدعوات تنشأ وتترعرع بين مفكرين وأدباء غربيين حتى بلغت مبلغ الحكومات والساسة الذين وجدوا ضالتهم فيها في بث النفوذ والسيطرة التي يرجونها.

¹ لويس ماسينيون: Louis Massignon مستشرق فرنسي، من العلماء من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. مولده ووفاته بباريس. تعلم العربية والفارسية والتركية والألمانية والإنكليزية وعني بالآثار القديمة وأدت مشاركته في التنقيب عنها بالعراق (1907-1908) الى اكتشاف "قصر الأخيضر" ودرس "تاريخ الاصطلاحات الفلسفية" بالعربية، في الجامعة المصرية القديمة (1913) واستهواه التصوف الإسلامي فكتب عن "مصطلحات الصوفية" وأخبار العلاج-ط ونشر "ديوان العلاج" مع ترجمته إلى الفرنسية و"الطواسين" للعلاج، وتشبع بأرائه. وكتب عن "ابن سبعين" الصوفي الأندلسي وعن "سلمان الفارسي" واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. ونشر "منتخبات من نصوص عربية خاصة بتاريخ الصوفية في الإسلام" وتولى تحرير "مجلة العالم الإسلامي" الفرنسية التي سميت بعد ذلك "مجلة الدراسات الإسلامية" وأصدر بالفرنسية أيضا "حوليات العالم الإسلامي" من سنة 1923 إلى 1954 وكتب كثيرا في "دائرة المعارف الإسلامية" عن القرامطة والنصيرية والكندي وفلسفة ابن سينا، وأمثال ذلك. وكتب "تاريخ العلم عند العرب" في "دائرة المعارف الممتازة" التي صدرت بباريس (المجلد الأول سنة 1957) وكان من موظفي وزارة المستعمرات في شبابه، ثم "مستشارا" لها بقية حياته. وحمدت مواقفه في قضيتي استقلال المغرب والجزائر. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط: الخامسة عشر-أيار/مايو 2002م، (247/5).

² ينظر: وزارة الثقافة الفرنسية -وصلة: <https://2u.pw/AOI7Z>

³ الأفغاني، جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأسد آبادي، (المتوفى: 1897م)، خاطرات الأفغاني، دار القمري، ط2، 1435هـ- 2014م، ص76.

فقد كثر تداول مصطلح "الإبراهيمية" في الإعلام منذ الإعلان عن اتفاق تطبيع كلٍّ من "الإمارات العربية المتحدة" و"مملكة البحرين" مع الكيان الصهيوني المحتل، برعاية أمريكية، في آب 2020، والذي جرى توقيعه في البيت الأبيض في العاصمة الأمريكية واشنطن، في منتصف أيلول 2020، بحضور وفودٍ أطراف الاتفاق الثلاثة، مع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، وأطلق اسم "أبراهام" على الاتفاق.¹

وصحيح أن الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب هو الذي أشرف وكان في صدارة هذا الاسم، إلا أن رغبته في تسمية اتفاق التطبيع بين كل من إسرائيل من جهة والإمارات والبحرين من جهة أخرى، من اتفاق ترامب إلى إتفاق إبراهيم لم تكن من قبيل المصادفة أو خشيةً من انتقادات الإعلام . حسب تعبيره²؛ ولكنها تمثل خطوة تم اتخاذها عن سبق الإصرار والترصد، وبناءً على توجهات فكرية وسياسية مقررّة منذ عقود، تعتمد بالأساس على توظيف الدين لخدمة السياسة الخارجية الغربية في منطقة الشرق الأوسط، وفي الصراع العربي -الإسرائيلي بوجه خاص.³

فدعوى صهر الديانات في مسمى الإبراهيمية والبحث عن منطقة مناسبة في الشرق الأوسط مسرحاً لهذه التمثيلية يتم الإعداد له من قديم، فقد ذكر الرئيس الأمريكي جيمي كارتر التسمية عندما أشرف على اتفاق التطبيع بين إسرائيل ومصر في 1978 و 1979، وهو المسمى باتفاقات كامب ديفيد، الذي وقّع عليها أنور السادات ومناحيم بيغن، قال كارتر حينها: دعونا نترك الحرب جانباً، دعونا الآن نكافئ كلّ أبناء إبراهيم المتعطشين إلى اتفاق سلامٍ شاملٍ في الشرق الأوسط، دعونا الآن نستمتع بتجربة أن نكون آدميين بالكامل، وجيراناً بالكامل، وحتى إخوة وأخوات، وذكر هذا الاسم أيضاً في سنة 1993 حين تم توقيع اتفاقيات أوسلو بين الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات ورئيس الوزراء حينها إسحاق رابين، قال الرئيس الأمريكي بيل

¹ موقع CNN العربي، بعنوان (الإمارات والبحرين توقعان السلام مع إسرائيل في البيت الأبيض)، بتاريخ 15 سبتمبر 2020، shorturl.at/dtvwL.

² قال: رائع.. شيء عظيم، أردت أن يطلق عليه "اتفاق دونالد ترامب"؛ لكنني (وهو يضحك) لم أعتقد أن الصحافة ستفهم، ولم أفعل هذا الأمر " تقرير منشور بموقع RT Arabic بتاريخ 8/14/2020 shorturl.at/ABKO5.

³ ينظر: الإبراهيمية بين التعايش والسيطرة، هاني رمضان طالب، بحث منشور بموقع مركز دراسات الوحدة العربية، بتاريخ 20/2/2021، shorturl.at/joqyA.

كلينتون أثناء إشرافه على حفل التوقيع في البيت الأبيض: "لأجل هؤلاء يجب أن نحقق نبوءة إشعياء بأن صرخة العنف لن تُسمع في أرضكم، ولن تصنع الدمار والخراب داخل حدودكم، إن أبناء إبراهيم، أي نسل إسحاق وإسماعيل، انخرطوا معا في رحلة جريئة، واليوم مع بعضنا بكل قلوبنا وأرواحنا، نقدم لهم السلام". وفي سنة 1994 خلال التوقيع على اتفاقية التطبيع بين إسرائيل والأردن، لم يذكر الرئيس كلينتون إشارته إلى إبراهيم، إلا أنه قال: في فجر هذا السلام لهذا الجبل، في هذا المكان القديم نحتفل بالتاريخ، وبإيمان الأردنيين والإسرائيليين، واستشهد كلينتون حينها ببعض المقاطع من القرآن والكتب اليهودية المقدسة، يبد أن كلينتون في ذلك الوقت كان قد ترك مهمة الإشارة إلى النبي إبراهيم لنظيره الملك حسين الأردني، الذي قال في خطابه: "سوف نتذكر هذا اليوم طيلة حياتنا لأجل أجيال المستقبل من الأردنيين والإسرائيليين والعرب والفلسطينيين، كل أبناء إبراهيم" ولاحقا، عندما تدهورت العلاقات بين الملك حسين ورئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في سنة 1997، كتب له ملك الأردن رسالة لمعاتبته، أشار فيها مجدداً إلى إبراهيم، حيث قال: "إن أسوأ حقيقة جعلتني أحزن هي أنني لا أجذك إلى جانبي في العمل لتحقيق إرادة الله للمصالحة النهائية، لكل نسل أبناء إبراهيم"¹.

وعليه فالأمور ليست اعتباطية، وهذه النتيجة ليست وليدة سنوات قليلة بل إن هذا المشروع بتفاصيله قد أبرم من قبل، واختيار الإمارات وما قامت به من تشييد معابد واستقطاب ممثلين عن الديانات الثلاث لهو أكبر دليل على أن المشروع ممول ومدرس بأيدي خبراء يعلمون من أين تؤكل الكتف.

وبالمقابل فالعرف الخاطي لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء².

¹ الاتفاق الإماراتي الإسرائيلي: اتفاق إبراهيم أم استعمار إسرائيلي؟ د. جوزيف مسعد، أستاذ سياسة العرب الحديثة وتاريخ الأفكار بجامعة كولومبيا في نيويورك، موقع نون بوست، بتاريخ 2020/08/30، shorturl.at/kBPW1، مترجم عن موقع ميدل إيست shorturl.at/biETV.

² حسن البنا، الرسائل، ص: 15.

المبحث الثاني: عقيدة اليهود والنصارى، وكيفية التعامل معهم في ضوء القرآن الكريم

لما كانت الدعاوى للبس اليهودية والنصرانية بالإسلام قديمة حديثة، كان لزاماً على الباحث تبیین حكم عقيدة كل من اليهود والنصارى في ضوء القرآن الكريم، بهدف نفي هذه الدعاوى والمشاريع الهدامة جملة وتفصيلاً.

المطلب الأول: حكم عقيدة اليهود والنصارى في ضوء القرآن الكريم

إن اليهود والنصارى كفّار في دين الإسلام، وقد تضافرت الأدلة على ذلك وبلغت مبلغ التواتر من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وإجماع علماء الإسلام¹.

ومن الآيات الواضحات في كتاب الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: 7].

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا تِلْكَ آمَايُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111-112].

يَحْزَنُونَ [البقرة: 111-112].

¹ ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (496/12). وينظر: ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون سنة نشر، (ص119) و(ص267). "محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي المبعوث بمكة المهاجر إلى المدينة رسول الله ﷺ إلى جميع الجن والإنس إلى يوم القيامة، وأن دين الإسلام هو الدين الذي لا دين لله في الأرض سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان قبله، وأنه لا ينسخه دين بعده أبداً، وأن من خالفه ممن بلغه كافر مخلد في النار أبداً". وينظر: القاضي عياض، الشفا، (280/2)، (286). وينظر: الشافعي، تفسير الشافعي، (1/225). وينظر: الطحاوي، العقيدة الطحاوية، ص86.

هذه الآيات الكريمات كانت المنارات ومصابيح الهدى التي استدلت بها علماء الإسلام على أن من كان على غير دين الإسلام فهو متبع للباطل ومتصف بوصف الكفر وعقابه النار يوم القيامة¹.

قال الماتريدي: "فالمؤمن بالصفة التي يصير بها مؤمناً لا يخلو من أن يكون أتى بالإسلام الذي هو الدين عند الله أو أتى ببعضه لا كله أو ابتغى غير دين الله فإن قال بالأول أذعن للحق وإن قال بالثاني فهو إذا لم يبتغ به ديناً إنما ابتغى بعضه وذلك بعيد بل شهد الله على مثله بأنه كافر حقاً"².

وقال الشافعي أيضاً: "فلم يزل ما حرم الله تعالى على بني إسرائيل -اليهود خاصة، وغيرهم عامة- محرماً حيث حرمه حتى بعث الله جل جلاله محمداً ﷺ، ففرض الإيمان به، وأمر بإتباع رسوله ﷺ، وطاعة أمره، وأعلم خلقه: أن طاعته، طاعته، وأن دين الإسلام الذي نسخ به كل دين كان قبله، وجعل من أدركه، وعلم دينه، فلم يتبعه كافراً به، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] فكان هذا بالقرآن"³.

وقد ذكر الله تعالى كفر اليهود والنصارى في غير موضع⁴ في الكتاب العزيز منها:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 17]

¹ ينظر: الشافعي، تفسير الشافعي، (1/225).

² الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور، (المتوفى: 333هـ)، التوحيد، تحقيق: د. فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية -الإسكندرية، ص369.

³ الشافعي، تفسير الشافعي، (1/466).

⁴ ابن تيمية، الجواب الصحيح، (8/2).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: 72]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: 73].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا

لِلْحَرْبِ أَظْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: 64].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30].

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

يقول الطبري: "... إن الذين كفروا بالله ورسوله محمد ﷺ، فجددوا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين

جميعهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿٦﴾ ماكنين، لا يثنون فيها أبدا لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها ﴿أُولَئِكَ

هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٦﴾ [البينة: 6].¹

المطلب الثاني: كيفية التعامل معهم في ضوء القرآن الكريم

بالرغم من كفر الكافر وضلاله إلا أن الله تعالى قد شرع للمسلمين كيف يكون تعاملهم مع غيرهم من الملل

الأخرى، فالمسلم ينبغي أن يكون معتزاً بدينه قد فهمه حق الفهم، فعلم أنه رحمة للعالمين، وأنه نور رب

¹ الطبري، جامع البيان، (555/24).

العالمين، والهادي إلى صراط مستقيم، فالمسلم يحب هداية الآخرين لهذا الدين القويم، ويسعى لأن يكون سببا يهتدي غيره على يديه، فينجو من العذاب المقيم بأن يدخل الإسلام ويتعرض للرحمات، ومحور التعامل مع غير المسلمين يتجلى في الآيتين اللتين هما فصل الخطاب في المسألة، وهما قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهِمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝﴾ [الممتحنة: 8-9]

أما موالاة أعداء الدين على حساب العقيدة فقد قال الله تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [المجادلة: 14-15]، وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [المجادلة: 22]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 144]

وبناء على ذلك فلا ينبغي الخلط بين البر والقسط مع غير المسلم، وبين اتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، فهذه هي المعادلة المطلوبة شرعاً، بأن تبرّه بكل باب من أبواب الخير، وأعظم البر دعوته بالتي هي أحسن؛ لأنّ في ذلك نجاته في الدار الآخرة، مع عدم تولّيه ظاهراً أو باطناً.

ومن مظاهر موالاة الكافرين التي ينبغي أن تجتنب:

موَدَّتْهم وحبَّتْهم والرضى بكفرهم، وعدم تكفيرهم، واتخاذهم أنصارًا وأعوانًا، ولتحاكم إليهم دون كتاب الله، والايمان ببعض ما هم عليه من الكفر، والركون إليهم، والاستناد والاعتماد والسكون إليهم، كمداهنتهم، ومجاملتهم على حساب الدين، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، ومعاونتهم على الظلم، ونقل عورات المسلمين إليهم¹.

ومن مظاهر موالاة الكافرين في داخلنا الفلسطيني خصوصًا:

خدمة الأحزاب الصهيونية والانخراط فيها، والمشاركة أو التأييد للخدمة المدنية أو العسكرية، والمشاركة أو التأييد للجمعيات النسوية الهدامة، وأخذ الأموال من الجمعيات الغربية المشبوهة وفق اشتراطات لا تخدم الدين².

ولا بأس أن يستعين المسلم بغير المسلمين في الأمور الفنية التي لا تتصل بالدين من طب وزراعة وصناعات وتكنولوجيا وإن كان الأجدر أن يكتفي المسلمون في كل ذلك إكتفاء ذاتيًا، ويجوز للمسلم أن يهدي غير المسلم وأن يقبل هديته ويكافئ عليها كما قبل النبي ﷺ من الملوك هداياهم وكانوا غير مسلمين³.

¹ ينظر: القحطاني، محمد بن سعيد بن سالم، الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، دار طيبة، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط:1، 1402هـ، ص267-270. وينظر: حوى، سعيد بن محمد ديب (المتوفى: 1409هـ)، جند الله ثقافة وأخلاقا، مكتبة وهبة، القاهرة -مصر، ط4، 1412هـ، ص:182-185.

² خليل، عبد الرحيم توفيق، ميثاق الدعاة والشيوخ، دار النور المبين، عمان -الأردن، ط1، 2017م، ص184.

³ ينظر: القرضاوي، يوسف عبد الله، الحلال والحرام في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة -مصر، ط1، 1433هـ، ص:295.

المبحث الثالث: الموقف من الديانة الإبراهيمية.

على ضوء النصوص القرآنية القاطعة في المطالب والمباحث السابقة وعلى اليقين بأن الدعوى الإبراهيمية ما هي إلا محاولة من سلسلة محاولات للنيل من الدين الحق، فإن الديانة الإبراهيمية خاصة ودعاوى توحيد الأديان عامة لهي حرب على دين الله، وهي ابتداع في الدين وقول على الله بغير حق، وهي سبيل فرقة وتفتيت للأمة المسلمة، وإن كان الاسم خادع، كما فعلوا من قبل بالعلمانية فألبسوها ثوب العلم وهو منها براء، والله غالب، والمعني بالدرجة الأولى إنما هو المسمى لا الإسم، وعليه فإن تفرق الكفار والمنافقين لا يضر بالوحدة التي يريد الله تعالى والإسلام وارث لجميع الديانات.

المطلب الأول: الثبات والوحدة في مواجهة الأفكار الهدامة

الوحدة المقصودة والجماعة المرجوة إنما هي جماعة المسلمين فقط، ولا يضرها بل ربما يقويها إن انسلخ عنها من يضرها كالكفار والمنافقين، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَاسَبُكَ اللَّهُ وَمَن تَتَّبَعُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64].

إن ظهور الدعوة إلى الديانة الإبراهيمية أظهر الناس على حقيقتهم، وكشف عورة الداعين إليها والداعمين لها، ومايز بين الصفوف، بين المؤمنين الصادقين الغيورين على دينهم، وبين المنافقين الذي يسعون لإرضاء الغرب على حساب دينهم وعقيدتهم.

وقد تعددت الآيات التي تبين أن الإسلام غني عن أمثال هؤلاء، ومن ذلك قوله تعالى في المقطع القرآني المباشر قبل الآية أعلاه: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَصْرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٦] وَاللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٢٧] [الأنفال: 62-63].

فتأليف القلوب بين أبناء المسلمين في مجابهة الباطل ومحاربهته إنما هو مدعاة لأن يكون بعضهم أولياء بعض، فإن تحقق ذلك نزلت بهم الرحمات وحلت عليهم البركات.

إن وجود المنافقين والمتأقلين والمشككين في صفوف المسلمين لن يزيدهم قوة ولن يدفع عنهم الأخطار، وهذه مسألة قد عاينها القرآن الكريم بدقة إذ يقول ربي جلّ في علاه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47]

فلو كان أهل غير الإسلام أجسادا لا قلوبا في الصف نفسه، فهم حينها كالخشب المسندة، ليس لهم أثر إيجابي، فهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ويتربصون بالمسلمين الدوائر، وكانوا سببا للخبال والفساد والشر والفتنة قاتلهم الله وأعاذ المسلمين منهم ومن صنيعهم أنى يؤفكون.

سياق الآية جاء تبينا لكرهية الله تعالى خروجهم ومآلاته: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]

في شكهم يتمادون، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ [التوبة: 46] المنافقين لو أرادوا أن يخرجوا معك، ﴿لَأَعَدُّوا

لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: 46] من الزاد والماء والظهر، فتركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف، فإنهم كانوا

مياسير قادرين على أخذ العدة لو أرادوا الخروج، ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: 46] انطلقهم

وخروجهم معك، ﴿فَتَبَطَّوهُمْ﴾ [التوبة: 46] فخذلهم وكسلهم عن الخروج، ﴿وَقِيلَ أَفَعَدُّوا مَعَ

الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 46] فالله ألهمهم أسباب الخذلان وأوحى إلى قلوبهم أن اعدوا مع القاعدين، ويجوز

أن يكون بعضهم قال ذلك لبعض، ثم أعلم الله لم كره خروجهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ [التوبة: 47] بينكم

ومعكم، ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47] الفساد والشر في كل شيء، فيجبنونكم عن لقاء العدو بتهويل

الأمر عليكم، ولأوضحوا خلالكم أي: لأسرعوا في الدخول بينكم بالتضريب والإفساد بالنميمة، والإيضاع:

الإسراع، ييغنونكم الفتنة، أي: يطلبون لكم العنت، يخوفونكم بالعدو ويخبرونكم أنكم مهزومون، وأن عدوكم

سيظهر عليكم، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 47] عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، ﴿وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47] المنافقين، ثم ذكر قبيح الذي فعلوا من قبل هذا فقال: ﴿لَقَدْ أَبْغَوْا آفَئِنَّةَ

مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: 48] طلبوا لك العنت والشر من قبل تبوك¹.

فلما كان ذلك كذلك يتبين أن انسلاخ غير المسلمين خاصة المنافقين لا يضر بوحدة الصف المسلم بل يقويه، حين يزيد الموحدين غيرة على دينهم، فيرسوا الصفوف من أجل الدفاع عنه.

المطلب الثاني: بيان بطلان وفساد الدعوة الإبراهيمية

الإسلام وارث جميع الرسالات فإذا ترسخ لدى المسلم هذا الأمر، وعلم أن أمة الإسلام أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، وأن رسالة النبي ﷺ هي للناس كافة، فحينها تتهاوى كل دعاوى الباطل التي تتادي بلحمة الأديان ومنها: الدعوى الإبراهيمية الأخيرة، فلا تجد لها مسلماً في ربوع أبناء دين الإسلام، ومما يعزز بطلان الدعوة الإبراهيمية:

أولاً: شمولية رسالة النبي محمد ﷺ للناس كافة.

ثانياً: أمة الإسلام أولى الناس بإبراهيم عليه السلام.

ثالثاً: ثمة روايات كثيرة تبين أن موسى وعيسى عليهما السلام يعظمون شريعة محمد عليه السلام.

رابعاً: كثرة النصوص التي تدل على تحريف اليهود والنصارى لشرائعه وكتبهم.

¹ ينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، (501/2).

أولاً: شمولية رسالة النبي محمد ﷺ للناس كافة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32].

قال الطبري: "وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكننا أرسلناك كافة للناس أجمعين؛ العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرا من أطاعك، ونذيرا من كذبك (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر"¹.

قال الزجاج: "أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ، فارسل الله النبي ﷺ إلى العرب والعجم"².

وإن النبي ﷺ قد تخطت رسالته الإنس فهو مرسل إلى كل مكلف إنسا كان أم جانا³.

ثانياً: أمة الإسلام أولى الناس بإبراهيم عليه السلام

لما كانت الدعوى التي خلص الذين يكيّدون للإسلام ملبوسة بإبراهيم عليه السلام، كان من المطلوب أن يبيّن الباحث أنّ أولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم النبي محمد ﷺ والذين اتبعوه.

¹ الطبري، جامع البيان، (288/19).

² الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، (254/4).

³ ينظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، (2234/7). وينظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، (447/8). وينظر: الواحدي، التفسير البسيط، (366/18).

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٦٧) إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: 67-68].

فإن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته الذين سلكوا طريقه ومنهجه، فوجدوا الله مخلصين له الدين وسنوا سننه وشرعوا شرائعه وكانوا لله حنفاء وهم المؤمنون الذين صدقوا نبي الله واتبعوه، فكان محمد رسول الله ﷺ والذين معه من المؤمنين¹.

وقد ادعى اليهود والنصارى أحقيتهم بإبراهيم من قديم دعوة الإسلام، إلا أن الإسلام حاجبهم بفرضية الحج المتصلة إتصلاً وثيقاً بإبراهيم عليه السلام فكانت بمثابة الضربة القاضية على دعواهم، فلما نزلت: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٨٥) قالت أهل الملل: الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخسرين ﴿[آل عمران: 84-85]، قالت أهل الملل: فنحن مسلمون، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ فحجهم، فقال لهم النبي ﷺ: حجوا، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ بَيِّنَاتٌ مِّنْهُ فَبِئْسَ الْفِتْنَىٰ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿[آل عمران: 96-97]﴾².

¹ الطبري، جامع البيان، (487/5، 488). وينظر: السمعاني، تفسير السمعاني، (330/1). وينظر: الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني، (622/2). وينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (255/8).

² ينظر: الشافعي، تفسير الشافعي، (480/1). وينظر: الطبري، جامع البيان، (555/5، 556، 622). وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، (30/2). وينظر: الخازن، لباب التأويل، (275/1). وينظر: البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (المتوفى: 458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: 1، 1432 هـ-2011 م، (198/9).

وبذلك يتبين أنّ أهل الإسلام هم أولى الناس بإبراهيم وأنّ الدعاوى التي تريد أن تلبس بإسم إبراهيم عليه السلام هي دعاوى باطلة هدامة، لا تريد إلا النيل من الإسلام وأهله.

ثالثاً: ثمة روايات كثيرة تبين أن موسى وعيسى عليهما السلام يعظمون شريعة محمد عليه السلام

عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: "أُمَّتَهُوْكَوْنَ¹ فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوه عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً، ما وسعه إلا أن يتبعني"².

وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: "يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم"³.

فيما يتعلق بعيسى عليه السلام واتباعه لمحمد ﷺ فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: "واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِّنْ أَهْلٍ أَلِكْتَبِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159]"⁴.

¹ أمتهوكون، أمتردون. ابن منظور، لسان العرب، حرف الهاء، هوك، (110/15).

² أحمد، المسند، برقم: (15156)، (349/23). البيهقي، شعب الإيمان، برقم: (174)، (347/1). وحسنه الألباني، محمد ناصر الدين (المتوفى: 1420هـ)، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف: زهير الشاويش الناشر: المكتب الإسلامي-بيروت الطبعة: الثانية 1405هـ-1985م، (34/6).

³ صحيح البخاري كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها رقم (2685)، (181/3).

⁴ صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، رقم (3448) (168/4).

وفي رواية عند مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، قال: "فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله هذه الأمة"¹.

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن عيسى عليه السلام سيحكم بشريعة نبينا محمد-ﷺ، وأنه لن يأت بشرع جديد، ولن يحكم بالشريعة التي أنزلها الله عليه.

رابعاً: كثرة النصوص التي تدل على تحريف اليهود والنصارى لشرائعهم وكتبهم.

يكرر المسلم في صلاته وفي كل ركعة من ركعاته قول الله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]

وكما هو معلوم أن المغضوب عليهم: اليهود، والضالين النصارى، فهل يعقل بعد قراءة أم الكتاب أن نجعل هذا النداء وهذا الدعاء خلف ظهورنا، وتتعالى دعواتنا إلى التهادي مع اليهود والنصارى على مائدة دين واحد، دين قد شهدت آيات القرن العظيم إنه محرف غير فيه أصحابه وبدلوا وفقاً لأهوائهم، فلم يعد شرعاً ربانياً، ولا شرعة سوية؛ لأنه دين خالطته شهوات البشر بعد أن نسوا حظاً مما ذكروا به، ومن هذه النصوص القرآنية التي تشير إلى تحرف أهل الكتاب لشريعتهم وكتبهم:

قوله عز وجل: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75] وفي هذه الآية أنهم غيروا وبدلوا بأهوائهم عن إصرار منهم وتعمد بعدما عقلوه وعلموه.

¹ صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ رقم (247)، (137/1)

وقوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 41].

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنْتَهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78].

في الآية تصريح بأنهم أضافوا لشرع الله ما ليس منه زورا وكذا وافتراء على الله.

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ بُدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَرَدَّهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91].

في الآية تصريح صريح أن الدين عندهم لهو وكذب، يبدون شيئا ويخون آخر وفقا لأهوائهم.

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، حمداً يرضيه عنا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد،
موحد صفوف المسلمين، ثم أما بعد:

فإن موضوع وحدة الأمة الإسلامية من خلال سيرة الأنبياء في تحقيقها، إنما هو موضوع غاية في الأهمية؛
إذ إن أهميته نابعة من احتياج الواقع الذي نعيشه، وهو من جهة أخرى مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم
على أنه أصل يرتكز عليه الإسلام الحنيف حيث كانت آيات القرآن الكريم مفاتيح لما خلصت إليه الدراسة،
ومن أهم النتائج والتوصيات:

أولاً: أهم النتائج:

1. الإسلام دينٌ كاملٌ، ومن سماته الواضحة وحنيفيته الفارقة، أنه دعا إلى الوحدة في مجالات الحياة جميعاً
على لسان أنبياء الله تعالى فمجالات الوحدة متعددة ومتنوعة، والإسلام شمل كل تلك النواحي.
2. الوحدة تقتضي وحدة الأصول، ولا يضر الاختلاف في الفروع.
3. ثمرات الوحدة دنيوية وأخروية؛ كالنصر، وتحصيل رضا الله ومحبه، ثم الفوز بالجنة.
4. ينبغي نشر خطاب التفاؤل بين أفراد المسلمين والقضاء على الإنهزامية.
5. في حال حدوث شجارٍ، أو نزاعٍ، يجب أن يكون الرجوع والمرد إلى الله والرسول، ﷺ، والعلماء الربانيين
والأمراء العادلين.
6. لا يضر وحدة المسلمين فرقة الكفار والمنافقين؛ فهم غير مؤثرين في حقيقة وحدة الأمة.
7. مجالات وحدة الأمة متعددة؛ ففي العبادات، مثلاً، تتجلى الوحدة في الصلاة والزكاة والحج والصيام بصورٍ
بارزة.
8. نواحي الوحدة متعدية إلى ساحات النزال والجهد، والاصطفاف مسؤولية الجيش والقادة ومن نتائجه
النصر ومحبة الله.

9. سمات الفرقة والتفتيت هي واحدة من أهم المحاور التي يعتمد عليها الغرب في السيطرة على بلاد الإسلام والمسلمين.

10. الدعوة الإبراهيمية هي دعوة هدامة وسبيل فرقة يجب محاربتها والتحذير منها.

11. الوحدة الإسلامية هي قيمة عليا في دين الله تبارك وتعالى لذا يجب تهيئة الأمة على كافة المستويات للسير في طريق الوحدة، والحالة المرصية التي تعاني منها الأمة إنما هي في مصلحة الغرب ومن اصطناعه وشأن الوحدة إنما هو خاص بالمسلمين ولا إبراهيمية تحله.

ثانياً: التوصيات

على ضوء ما أسفرت عنه الدراسة من نتائج هاؤم أهم التوصيات المقترحة التي من شأنها المساهمة في لحمة الصف المسلم والحفاظ على وحدته:

1. في ظل انعدام الخليفة، بقي الشق المكمل لأولي الأمر، فعليهم، أي العلماء الربانيون، دراسة القرآن الكريم والعلوم الشرعية الدينية مذللين الصعاب لإيلاء موضوع الوحدة أهمية تتناسب قدره محتسبين الأجر عند الله.

2. على العلماء العاملين تقعيد مبدأ الوحدة، والدعوة إليها، بإقامة مؤتمرات وندوات ولقاءات ومحافل تهدف لرص الصفوف من أجل الوصول الى الوحدة.

3. التركيز على الأصول المشتركة، ونبذ الخلافات، وأسباب الشقاق والنزاع التي من شأنها أن تضر بالوحدة وطرق أبواب الألفة والاتحاد.

4. التضرع إلى الله تعالى ودعاؤه، جل في علاه، أن يوحد الأمة الإسلامية.

5. الدعوة عند الخلاف إلى الاحتكام إلى القرآن الكريم، وسنة رسولنا محمد، ﷺ.

6. تحرير محالّ النزاع من قبل أهل الذكر المختصين، ثم اختيار أخف الأضرار.

7. تسخير الجهات الرسمية، والهيئات الدبلوماسية ووسائل الإعلام وجهود الشباب وخبرات الوجهاء في

غرس مفهوم الوحدة.

وختامًا: فإن هذا الجهد إنما هو جهد بشري فما كان فيه من خيرٍ فهو من توفيق الله وحده، وما كان فيه من زللٍ، أو نقص، فهو من الشيطان، ومن النفس المقصرة، وأسأله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن ينفع به، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

[1] ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي (المتوفى: 327هـ): تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط3، 1419هـ.

[2] أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى 241هـ): أصول السنة لأحمد بن حنبل دار المنار -السعودية ط1 1411هـ.

[3] أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى 241هـ): العقيدة رواية أبي بكر الخلال، تحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان دار قتيبة -دمشق، ط1، 1408هـ.

[4] أحمد بن حنبل، أبو عبد الله بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى 241هـ): مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط عادل مرشد وآخرون دار الحديث -القاهرة، ط1، 1995م.

[5] الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (المتوفى: 321هـ): جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين -بيروت، ط1، 1987م.

[6] الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري (المتوفى: 1420هـ): إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي -بيروت، ط2، 1405هـ- 1985م.

[7] الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري (المتوفى: 1420هـ): صحيح موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض -المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ- 2002م.

[8] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله (المتوفى: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم

والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1415هـ.

[9] البابرتي، محمد بن محمد بن محمود أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال

الدين الرومي (المتوفى: 786هـ): العناية شرح الهداية، مطبوع بهامش: فتح القدير للكمال ابن الهمام،

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (وصورتها دار الفكر، لبنان)، ط1، 1389هـ -

1970م.

[10] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (المتوفى 256هـ): صحيح البخاري، تحقيق: د.

مصطفى ديب البغا دار ابن كثير، دار اليمامة - دمشق، ط5، 1414هـ - 1993م.

[11] البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي المعروف (المتوفى:

292هـ): مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (ج1-9)، عادل

بن سعد (ج10-17)، صبري عبد الخالق الشافعي (ج18) مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

[12] ابن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ): شرح صحيح البخاري لابن

بطّال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، ط2، 1423هـ - 2003م.

[13] ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري الحنبلي (المتوفى: 387هـ): الإبانة عن شريعة

الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل،

والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض، ط2، 1418هـ.

[14] البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود (المتوفى: 510هـ): معالم التنزيل في تفسير

القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1420هـ.

[15] البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: 885هـ): نظم الدرر في

تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط1، 1431هـ، (تاريخ النشر بالشاملة).

[16] البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: 685هـ): أنوار التنزيل

وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1418هـ.

[17] الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك أبو عيسى (المتوفى: 279 هـ): الجامع

الكبير - سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1، 1996م.

[18] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (المتوفى: 279هـ): الشمائل

المحمدية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن، 1431هـ.

[19] التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله (المتوفى: 283هـ): تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون

السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1423هـ.

[20] ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن

محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): الإخائية، تحقيق: أحمد بن موسى العنزي، دار الخراز - جدة، ط1، 1420هـ.

[21] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن

محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان 1419هـ - 1999م.

[22] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن

محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ.

[23] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): **الجواب الصحيح على من بَدّل دين المسيح**، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة - السعودية، ط2، 1419هـ.

[24] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني (المتوفى: 728هـ): **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة النبوية، 1416هـ.

[25] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): **شرح العقيدة الأصفهانية**، تحقيق: محمد بن رياض الأحمدن المكتبة العصرية - بيروت، ط1، 1425هـ.

[26] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ): **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الحرس الوطني السعودي - السعودية، ط1، 1431هـ (نشر بالشاملة).

[27] الجرجاني، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حلیم البخاري (المتوفى: 403 هـ): **المنهاج في شعب الإيمان**، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط1، 1399هـ - 1979م.

[28] الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي (المتوفى: 370هـ): **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1405هـ.

[29] الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: 864هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: 911هـ): **تفسير الجلالين**، دار الحديث - القاهرة، ط1.

[30] ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي (المتوفى: 392هـ): المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط1، 1420هـ.

[31] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: 393هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط4، 1407هـ-1987م.

[32] الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ): المستدرک علی الصحيح، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1411هـ.

[33] حسن البناء، ابن أحمد عبد الرحمن محمد الساعاتي (المتوفى: 1949م): رسائل حسن البناء، رسالة التعليم، أركان البيعة، الأخوة.

[34] ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد أبو زرعة (المتوفى: 403هـ): حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، ط1، النشر بالشاملة 1431هـ.

[35] الكيا الهراسي، علي بن محمد بن علي أبو الحسن الطبري الملقب بعماد الدين الشافعي (المتوفى: 504هـ): أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط2، 1405هـ.

[36] ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ بن مَعْبِد التميمي الدارمي البُستي (المتوفى: 354هـ): الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ-1988م.

[37] ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي أبو الفضل الشافعي (المتوفى: 852هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، 1379هـ.

[38] ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (المتوفى 852هـ): **المطالب العالية**

بزوائد المسانيد الثمانية، المحقق: مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، دار العاصمة للنشر

والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط1، من المجلد 1-11: 1419هـ-1998م، من المجلد 12-

18: 1420هـ-2000م.

[39] ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي

السعدي الأنصاري (المتوفى: 974هـ): **الفتح المبين بشرح الأربعين**، تحقيق: أحمد جاسم محمد

المحمد، قصي محمد نورس الحلاق، أبو حمزة أنور بن أبي بكر الشخي الذاغستاني، دار المنهاج،

جدة - المملكة العربية السعودية، ط1، 1428هـ-2008م.

[40] أبو حفص النسفي، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد الحنفي (المتوفى: 537هـ): **التيسير في**

التفسير، تحقيق: ماهر أديب حبوش دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، أسطنبول - تركيا، ط1،

1440هـ.

[41] حكيم، أباير: **التربية الأخلاقية**، مطبعة اليقظة - القاهرة، 1922م.

[42] أبو حنيفة، النعمان بن ثابت بن بن مرزبان الكوفي (المتوفى: 150هـ): **الفقه الأكبر**، تحقيق: محمد

بن عبد الرحمن اخميس، مكتبة الفرقان - الإمارات العربية، ط1، 1419هـ-1999م.

[43] أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ):

البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل دار الفكر - بيروت، ط1، 1420هـ.

[44] ابن خالويه، الحسين بن أحمد بن عبد الله (المتوفى: 370هـ): **الحجة في القراءات السبع**، تحقيق:

د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، ط4، 1401هـ.

[45] الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (المتوفى: 388هـ): العزلة، المطبعة السلفية - القاهرة، ط2، 1399هـ.

[46] أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (المتوفى: 275هـ): سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العلمية، ط1، 1430هـ.

[47] أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني (المتوفى: 275هـ): سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود، والشرح «عون المعبود» لشرف الحق العظيم آبادي (المتوفى: 1329هـ) المطبعة الأنصارية بدلهي - الهند 1443هـ.

[48] دراز، دستور محمد بن عبد الله (المتوفى: 1377هـ): دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط10، 1418هـ.

[49] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (المتوفى: 606هـ): مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3، 1420هـ.

[50] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ): تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، دار الوطن - الرياض، ط1، 1424هـ.

[51] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: 502هـ): المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط1، 1412هـ.

[52] الرافي، عبد الكريم بن محمد القزويني (المتوفى: 623هـ): فتح العزيز بشرح الوجيز = الشرح الكبير، دار الفكر.

[53] ابن رجب، زيد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى:

795هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، مجدي بن

عبد الخالق الشافعي، إبراهيم بن إسماعيل القاضي، السيد عزت المرسى، محمد بن عوض المنقوش،

صلاح بن سالم المصراي، علاء بن مصطفى بن همام، صبري بن عبد الخالق الشافعي، مكتبة

الغريب الأثرية - المدينة النبوية، ط1، 1417هـ.

[54] رشيد رضا، محمد ابن علي بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني

الحسيني (المتوفى: 1354هـ): تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

1990م.

[55] الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق (المتوفى 311 هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق:

عبد الجليل عبده شلبي عالم الكتب - بيروت، ط1، 1408هـ-1988م.

[56] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (المتوفى: 538هـ): الكشف عن حقائق غوامض التنزيل،

دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، 1407هـ.

[57] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: 1376هـ): تيسير الكريم الرحمن في تفسير

كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، ط1، مؤسسة الرسالة، 1420-2000م.

[58] أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (المتوفى: 982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا

الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت 1431هـ - النشر بالشاملة.

[59] سفيان الثوري، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الكوفي (المتوفى: 161هـ): تفسير سفيان

الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ-1983م.

[60] السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: 373هـ): بحر العلوم، تاريخ النشر بالشاملة 1431هـ.

[61] السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد (المتوفى: 489هـ): تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض -السعودية، ط1، 1418هـ-1997م.

[62] الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى 204هـ): الأم، دار المعرفة -بيروت، بدون طبعة 1410هـ/1990م.

[63] الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ): تفسير الإمام الشافعي، تحقيق: د. أحمد بن مصطفى الفرّان، دار التدمرية -المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ.

[64] الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ): الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي -مصر.

[65] الشعراوي، محمد متولي (المتوفى: 1418هـ): تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم -مصر ليس على الكتاب الأصل -المطبوع- أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997م.

[66] الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (المتوفى: 548هـ): الملل والنحل، مؤسسة الحلبي -القاهرة، ط1، 1387هـ.

[67] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: 1250هـ): إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، دار الكتب العلمية -لبنان، ط1، 1404هـ.

[68] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (المتوفى: 1250هـ): **فتح القدير**: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب -دمشق -بيروت، ط1، 1414هـ.

[69] الصرصري، نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الحنبلي (المتوفى: 716هـ): **الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية**، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط1، 1426هـ.

[70] الصنعاني، محمد بن إسماعيل (المتوفى: 1182هـ): **تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد**، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، مطبعة سفير -الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ.

[71] أبو طالب المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي (المتوفى: 386هـ): **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد**، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي دار الكتب العلمية -بيروت، ط2.

[72] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (المتوفى: 310هـ): **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422هـ-2001.

[73] الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الحجري المصري الحنفي، (المتوفى: 321 هـ): **العقيدة الطحاوية**، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط2، 1414هـ.

[74] ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ): **الاستذكار**، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، 1421هـ.

[75] ابن عبد الحكم، أبو محمد المصري عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع (المتوفى: 214هـ): **سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه**، تحقيق: أحمد عبيد عالم الكتب - بيروت - لبنان، ط6، 1404هـ-1984م.

[76] عبد الرزاق، أبو بكر بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: 211هـ): **تفسير عبد الرزاق**، تحقيق: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1419هـ.

[77] عبد الكريم، ابن يونس الخطيب (المتوفى: 1390هـ): **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكر العربي - القاهرة، 1431هـ (تاريخ النشر بالشاملة).

[78] ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسن الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ): **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، ط1، 1419هـ.

[79] العز بن عبد السلام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ): **تفسير القرآن**، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط1، 1416هـ.

[80] ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ): **المحرر الوجيز شرح الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1422هـ.

[81] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (المتوفى: 505هـ): **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة - بيروت تاريخ النشر بالشاملة: 8 ذو الحجة 1431.

[82] الغزالي، محمد السقا (المتوفى: 1416هـ): **خلق المسلم**، دار الكتب الحديثة، 1974م.

[83] ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: 395هـ): **مجل اللغة**،

تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2، 1406هـ.

[84] أبو الفداء الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (المتوفى 1127هـ): **روح البيان**،

دار الفكر - بيروت، تاريخ النشر بالشاملة: 1431.

[85] الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (ت 207هـ): **معاني القرآن**، تحقيق:

أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، ط1.

[86] الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: 170هـ): **كتاب**

العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال - بيروت ط1.

[87] القاضي، أبو الفضل عياض ابن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبتي (المتوفى: 544هـ):

شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المنعم بفوائد مسلم: تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1419هـ-1998م.

[88] ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي الجماعلي الدمشقي الصالحي

الحنبلي (المتوفى: 620هـ): **المغني**، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط3، 1417هـ-1997م.

[89] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (المتوفى: 671هـ): **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق:

أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م.

[90] القسطلاني، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القتيبي المصري

(المتوفى: 923هـ): إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط7،

1323هـ.

[91] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت 465هـ): الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور

عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، 1431هـ، النشر بالشاملة.

[92] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: 465هـ): لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم

البسيوني، ط3، 1431هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.

[93] ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): الصلاة، تحقيق:

عدنان بن صفاخان البخاري، دار عطاءات العلم، (الرياض)، ط4، 1440هـ-2019م.

[94] ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): طريق الهجرتين وباب

السعادتين، تحقيق: محمد أجمل، دار عطاءات العلم - الرياض، ط4، 1440هـ.

[95] ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): الطرق الحكمية في

السياسة الشرعية، تحقيق: نايف بن أحمد الحمد، دار عطاءات العلم - الرياض، ط4، 1440هـ.

[96] ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية (المتوفى: 751هـ): مدارج السالكين في

منازل السائرين، تحقيق: سليمان بن عبد الله العمير، دار عطاءات العلم - الرياض، ط2، 1441هـ.

[97] الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الحنفي (المتوفى: 587هـ): بدائع الصنائع في

ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، ط2، 1406هـ-1986م.

[98] الكرمانى، أبو القاسم محمود بن حمزة، (المتوفى بعد سنة 531هـ): لباب التفسير، التحقيق: أربع

رسائل دكتوراة بقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بالرياض 1 - ناصر بن سليمان العمر - من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة النساء - 1404هـ. 2 -

عبد الله بن حمد المنصور - من أول سورة المائدة إلى آخر سورة الإسراء - 1429هـ.

3 - إبراهيم بن محمد بن حسن دومري - من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الصافات - 1429هـ. 4 -

-إبراهيم بن علي بن ولي الحكمي - من أول سورة ص إلى آخر سورة الناس - 1429هـ.

[99] سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي (المتوفى: 1386هـ): في ظلال القرآن، دار الشروق -مصر، ط2،

1398هـ.

[100] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ):

تفسير القرآن العظيم، محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية، -بيروت، ط1، 1419هـ.

[101] الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ): الكليات معجم

في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش -محمد المصري مؤسسة الرسالة

-بيروت.

[102] الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (المتوفى: 333هـ): تأويلات أهل السنة، تحقيق:

د. مجدي باسلوم دار الكتب العلمية -بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ-2005م.

[103] مالك بن أنس، أبو عبد الله بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ): المدونة، دار

الكتب العلمية، ط1، 1415هـ-1994م.

[104] مالك بن أنس، أبو عبد الله بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني (المتوفى:

179هـ): **الموطأ**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال

الخيرية والإنسانية -أبو ظبي -الإمارات، ط1، 1425هـ.

[105] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): **أعلام**

النبوة، دار ومكتبة الهلال -بيروت، 1409هـ.

[106] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ): **النكت**

والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية -بيروت.

[107] مجاهد، أبو الحجاج بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: 104هـ): **تفسير مجاهد**،

تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، ط1، دار الفكر الإسلامي الحديثة -مصر، 1410هـ-1989م.

[108] المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: 1371هـ): **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى

البابوي الحلبي وأولاده -مصر، ط1، 1365هـ.

[109] ابن المرزبان، أبو بكر محمد بن خلف المحولي (المتوفى: 309 هـ): **المروءة**، تحقيق: محمد خير

رمضان يوسف دار ابن حزم، بيروت -لبنان، ط1، 1420هـ.

[110] مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (المتوفى 261هـ): **الجامع الصحيح -**

صحيح مسلم، دار الطباعة العامة -تركيا، ط1، 1334هـ.

[111] مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: 150هـ): **تفسير مقاتل بن**

سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحات دار إحياء التراث -بيروت، ط1، 1423هـ.

[112] ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابوري (المتوفى: 319 هـ): تفسير ابن المنذر، تحقيق:

د. سعد بن محمد السعد، دار المآثر - المدينة النبوية، ط1، 1423هـ.

[113] النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (المتوفى: 303هـ): السنن الكبرى، تحقيق: حسن

عبد المنعم شلبي بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1421هـ-2001م.

[114] النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: 303هـ): المجتبى من

السنن = السنن الصغرى للنسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية

- حلب، ط2، 1406هـ.

[115] النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (المتوفى: 710هـ): مدارك التنزيل

وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بدوي، ط1، دار الكلم الطيب - بيروت، 1419هـ-1998م.

[116] نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد (المتوفى: ق 12هـ): دستور العلماء = جامع

العلوم في اصطلاحات الفنون، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1،

1421هـ-2000م.

[117] النهاوندي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي (المتوفى: 337هـ): اشتقاق أسماء الله،

تحقيق: د. عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط2، 1406هـ.

[118] النووي، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: 676هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن

الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2، 1392هـ.

[119] النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (المتوفى: 850هـ): غرائب القرآن و رغائب

الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1416هـ.

[120] الهروي، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهرى (المتوفى: 370هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد

عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1.

[121] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ):

أسباب النزول، تحقيق: كمال بسيوني زغلون دار الكتب العلمية - بيروت، 1411هـ.

[122] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: 468هـ):

التفسير البسيط، تحقيق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم

قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية، ط1، 1430هـ.

[123] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (المتوفى:

468هـ): الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، صفوان عدنان داوودي، دار القلم الدار الشامية

- دمشق، بيروت، ط1، 1415هـ.

[124] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد (المتوفى: 468هـ): الوسيط في تفسير القرآن المجيد،

تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني

الجميل، عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ-1994م.

[125] الولولي، محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي: البحر المحيط النجاج في شرح صحيح الإمام

مسلم بن الحجاج، دار ابن الجوزي، ط1، 1436هـ.

[126] يحيى بن سلام ابن أبي ثعلبة التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (المتوفى:

200هـ): تفسير يحيى بن سلام تحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان،

ط1، 1425هـ.

الملاحق

الملحق (أ)

الجدول

جدول (1)

الآيات القرآنية الدالة على وحدة الأمة الإسلامية باللفظ

السورة ورقمها	الآية ورقمها
البقرة (2)	﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]
البقرة (2)	﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]
البقرة (2)	﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 213]
النساء (4)	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]
النساء (4)	﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [النساء: 171]
المائدة (5)	﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48]
المائدة (5)	﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 73]
الأنعام (6)	﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19]
التوبة (9)	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31]
هود (11)	﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118]
يوسف (12)	﴿يَصْلَحِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]
الرعد (13)	﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16]
إبراهيم (14)	﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48]

- (14) إبراهيم ﴿هَذَا بَلَغَ لِّالنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أَوْلُوا
الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: 52]
- (16) النحل ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: 22]
- (16) النحل ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:
51]
- (16) النحل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: 93]
- (18) الكهف ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: 110]
- (21) الأنبياء ﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾
[الأنبياء: 92]
- (22) الحج ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْمَاءُ طُفٌ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: 34]
- (23) المؤمنون ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: 52]
- (29) العنكبوت ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: 46]
- (37) الصافات ﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿١﴾﴾ [الصافات: 4]
- (40) غافر ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۖ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: 84]
- (42) الشورى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: 8]
- (43) الزخرف ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُئْتِيَهُمْ سُقُفًا مِّن
فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: 33]
- (54) القمر ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ۚ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: 24]
- (الإخلاص) (112) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4]

جدول (2)

الآيات القرآنية الدالة على وحدة الأمة الإسلامية بالمعنى

السورة ورقمها	الآية ورقمها
الفاتحة (1)	﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ ٤ يَوْمِ الدِّينِ ٥ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٦ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٧ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾ [سورة الفاتحة: 1-7]
البقرة (2)	﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ١٢٨ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةٍ نَفْسَةٍ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣١ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنْ أَلَّاهُ أَصْطَفَى لَكُمْ آلِدِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 128-132]
البقرة (2)	﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ ١٣٨﴾ [البقرة: 138]
البقرة (2)	﴿وَأَمَّا الرُّسُولُ فَإِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مِنَ رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ٢٨٥ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: 285-286]
آل عمران (3)	﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ٨٤ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 84-85]
آل عمران (3)	﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ﴾

مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: 103-105].

آل عمران (3) ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159].

النساء (4) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: 59].

النساء (4) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65].

النساء (4) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: 146].

النساء (4) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: 175].

الأنعام (6) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآلِيَّتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: 125-126].

الأنعام (6) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: 159].

الأنفال (8) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: 46].

الأنفال (8) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وَالْفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ

أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٢﴾ يَتَّيْهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ [الأنفال: 62-64].

(9) التوبة ﴿٦٤﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٥﴾ [التوبة: 71].

(16) النحل ﴿٦٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ [النحل: 120].
(16) النحل ﴿٦٨﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٩﴾ [النحل: 123].

طه (20) ﴿٧٠﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٧١﴾ [طه: 94].

(22) الحج ﴿٧٢﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿٧٣﴾ فَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٧٤﴾ [الحج: 34].

(22) الحج ﴿٧٥﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٦﴾ [الحج: 78].

(30) الروم ﴿٧٧﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٧٨﴾ [الروم: 32].

(42) الشورى ﴿٧٩﴾ * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿٨٠﴾ [الشورى: 13].

(49) الحجرات ﴿٨١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٨٢﴾ [الحجرات: 10].

(60) الممتحنة ﴿٨٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴿٨٤﴾ [الممتحنة: 4].

(61) الصف ﴿٨٥﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُيِّنٌ مَرْصُوصٌ ﴿٨٦﴾ [الصف: 4].



An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

**UNITY OF UMMAH (NATION) IN THE
PROPHETS' CALL
A QURA'NIC STUDY**

By
Mohammed Khalid Hayadri

Supervisor
Prof. Muhsen Al-Khaldi

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree
of Master of Fundamentals of Islamic Law, Faculty of Graduate Studies, An-
Najah National University, Nablus- Palestine.
2022**

UNITY OF UMMAH (NATION) IN THE PROPHETS' CALL A QURA'NIC STUDY

By
Mohammed Khalid Hayadri
Supervisor
Prof. Muhsen Al-Khaldi

Abstrac

The researcher tracked the Qura'nic verses related to the approach of Prophets (PBUT) in uniting the nation and arranged them in terms of the thematic interpretation methodology, correctly understand them with reference to interpreters and scholars' testimony and using the inductive, analytical, critical approach.

The study included and introduction, four chapters, and a conclusion. The first chapter touched upon the concept of unity and defining the keywords of the study. The researcher introduced the three concepts "approach", "Prophet" and "nation", then he expanded in explaining the concept "unit" in the Holy Qur'an, defining it in language and terminology and showing the relationship between the two definitions. Then, the researcher addressed all the concepts related to the word "unite", defining it in language and terminology and showing the relationship between the definitions. The second chapter was dedicated to explain the grace of unity and censure division in the Prophets' Da'wa. In the third chapter, the researcher presented the Prophets' Da'wa (BPUT) for their people to follow one doctrine by showing that we all have a one religion and that we were created by a one God and that dominion is for Allah, the one. The chapter continued to show they had called their people to believe in the general articles of faith that are based on believing in all God's Prophets and believing in the day of resurrection, highlighting the unity of Prophets to deliver the message and showing people the right path. Finally, the fourth chapter provided the characteristics of Prophet Mohammad's Da'wa (PBUH) with a broad view.

In conclusion, the study founded that the unity of the nation is a will of the Almighty and is the basis of the Prophets' Da'wah (PBUT), and it is an obligation upon all Muslims.

Keyword: Unity, disparagement of division, unification of religions, Abrahamic call, nation.